16 em Année No. 759

Lundi — 19 — 1 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

م

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٥٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٧ — ١٩ يناير سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

عقـــدة منحلة !

للأستاذ عباس محمود العقاد

فى رأى الأستاذ نقولا الحداد أن فيثاغوراس لم يكن إلا مخرفاً سخيفاً حين قال إن الكون عدد ونغم !

وقد كان فيثاغوراس يقول ذلك يوم كانت المادة عند الأقدمين جسما محسوساً أو كتلة كثيفة ، ولم يكن معروفاً من تقسيم العناصر وقوانين الحركة شىء مما يعرفه العلماء الآن .

ثم عُرفت العناصر ، وعرف أنها كلها تركيبات من الكهارب ، وأنها تختلف بينها باختلاف أعداد الكهارب حول نواة كل عنصر ، وأن الكهارب نفسها إذا ردت إلى الإشعاع فهى عدد من الذبذبات ، كلما ميزتها بغير العدد جسما أو قوة أو طاقة عدت إلى العدد ، والتناسب بينه ، من جديد . . . لأن آخر الأمر فى القوة أنها حركة ، وآخر الأمر فى الحركة أنها عدد من الذبذبات .

لا جرم نرى أناساً من أكبر أقطاب العلوم الطبيعية فى هذا العصر — إن لم يكونوا أكبرهم جميعاً — أمثال مليكان Mellikan وادنجتون Eddington وجينز Jeans يقولون إن الطبيعة حساب ورياضة ، ويتحدث جينز خاصة عن « الله الرياضى » ... لأن قوانين الطبيعة مسائل ومعادلات .

فإذا كان الأستاذ نقولا الحداد لا يسخو على المسكين فيثاغوراس بأكثر من صفة التخريف والسخافة فليس معنى ذلك أن فيثاغوراس المسكين مخرف سخيف فيما قال عن العدد والنغم ، وإنما معناه أن الأستاذ نقولا الحداد لم يرزق بداهة فلسفية كبداهته ، ولم يرزق نظرة علمية إلى ماوراء الظواهر كالنظرة التى يؤثرها أمثال جينز وادنجتون ومليكان .

ولو أن الأستاذ نقولا الحداد رزق تلك البداهة لانحنى إجلالا لتلك العبقرية التى نفذت من وراء الكثافة المادية ، ومن وراء العصور المتطاولة ، إلى حقيقة مجردة يسمعها الأستاذ ولا يفقهها وهو يعيش فى عصر « العدد » الذى يصحب الوجود من أمواج الكهرباء والمغناطيس ، إلى أجزاء العناصر ونسب الكهارب وجلة ما فى الوجود بين الأرض والسماء .

والفرق بين تحية الإجلال الواجبة ، وبين تهمة السخافة الجائرة ، هو الفرق بين التقدير الصحيح والتقدير الخاطىء فى أمثال هذه الأمور .

* * *

على أن هذا التقدير الخاطىء قد تجلى فى هالة ألمع من هذه الهالة حين تصدى الأستاذ لموضوع كتابنا عن « الله » وتناول مشكلة العقل فقال عنها فى فصل من عدد المقتطف الأخير :

« إذا صرفنا النظر عن ذاتية العقل وحسبنا العقل عملا من أعمال خلايا الدماغ — الصنوبرية أو غير الصنوبرية — أو هو أهم

وظيفة لهذه الخلايا بل هو وظيفتها الرئيسية فى الأقنوم الإنسانى، انحلت العقدة حالا » .

وهـذه هى العقدة التى حلها الأستاذ حالا ... وبمثل هذه السرعة يستطيع ولاشك أن يحل كل عقدة من العقد بغير كثير أو قليل من العناء .

فأما أن يكون فى هذا الوجود شىء عجيب أو ليس فيه شىء عجيب على الإطلاق ، لأن وجوده فيـه ينفى عنه العجب ويغنيه عن التعليل .

فإن لم يكن فيه شىء عجيب فقد انتهينا وانحلت العقدة حالا ، بل لم توجد العقدة حتى تحتاج إلى حلول .

وإن كان فيه شىء عجيب فأى شىء هو هذا الذى يمكن أن يوصف بالعجب أعجب من ظهور الحياة فى المـادة ، فضلا عن ظهور العقل وهو أعجب من الحياة ! .

كيف كسبت الخلية الحية خصائص الحياة ؟ كيف انقسمت لتحفظ نوعها ! كيف تطور هـذا الانقسام إلى ذكورة بسيطة وأنوثة بسيطة ؟ كيف تجمعت هذه الخلايا فى أجساد تختلف فيما بينها اختلاف الأنواع والأجناس ؟ كيف نمت هـذه الأجسام وارتقت فارتفعت طباقاً فوق طباق ؟ كيف أصبحت كل خلية توافق كل خلية غـيرها فى البنية على العمل المشترك بين جميع الأعضاء ؟ كيف بلغت مبلغ الإنسان وظهر فيها عقل الإنسان ؟ كيف اتفق هذا التطور فى اتجاه واحد إلى هذا الاستعداد لظهور الحياة واستمرار أجيـال الأحياء ثم ظهور التفـكير فى أرق الأحياء ؟ .

أهو تدبير أم مصادفة عمياء ؟ .

إن كان تدبيراً فهذا هو العقل الذى ينـكره الأستاذ ! وإن كان مصادفة عمياء فأين هو العقل الذى يستريح عند ما يقال له : لا تعجب ولا تستفسر فإن العقدة منحلة لا تحتاج إلى إيضاح ، وهل بعد المصادفة العمياء من حل تتطلع إليه العقول ؟ .

وهذا العقل نفسه كيف يقال إنه عنصر محدود فى الـكون بعقل الإنسان دون سواه ؟ .

ما هو الـكون ولا سيما الـكون فى نظر المـاديين ؟ .

إنه ليس بإقليم من الأقاليم أو قطر من الأقطار فيقال إن العقل من حاصلات هذا الإقليم دون ذلك الإقليم ، أو مزروعات هذا القطر دون ذلك القطر ! .

كلا . بل هو كل ما كان وما يكون من غير بداية وإلى غير نهاية ... فـكيف يستريح العقل حين يقال له إن عنصر العقل فى الـكون كله إن هو إلا فلتة من فلتات المصادفة وجد على سبيل الاتفاق بعد وجود الإنسان ؟ .

كيف تحل مشكلة العقل المجرد الذى عرف الحقائق الرياضية تامة ولا يزال « العقـل التجريبى » يتخبط فى علوم الحس والمشاهدة ؟ ..

كيف تحـل مشكلة العقل الذى يعظم كما تعظم العبقرية بالاختلال فى البنية لا بالاستواء المعهود فى التـكوين ؟ .

كيف تحل مشكلة العقل الذى ينتقل بغير الوسائل المـادية والصور المحسوسة من واعية إلى واعية ومن دماغ إلى دماغ ؟ .

إنك لا تستطيع أن تقول إن « المكنات » الـكهربائيـة هى التى أوجدت الـكهرباء فى العالم . فـكيف تقول إن الدماغ البشرى هو الذى أوجد الفـكر فى الـكون كله بعد أن لم يكن له وجود ؟ .

وليس لك أن تزعم أنك قد عرفت الـكهرباء بعد أن عرفت المكنات ، لأنك لا تعرف عن الـكهرباء أكثر من فروض وتخمينات .

تزعم حيناً أنها أمواج فلماذا تتموج ولا تستقيم ؟ .

تقول إنها فى بحر من الأثير فـما هو الأثير إلا أنه فرض مزعوم ؟ .

تقيس سرعة النور فلماذا تحده بهذه السرعة وبماذا تعلل أنه لا ينقص أو يزيد ؟ .

تتـكلم عن اتجاه النور فإلى أين ينتهى بعد هـذا الاتجاه ؟ أيقف فما الذى يقفه ؟ أيسرى إلى غـير نهاية فأين هى مقاومة الأثير المزعوم ؟ .

تعود إذن إلى الأثير لتطلق عليه أوصافاً لا دليل لها ولا يزال تصديق كل وصف للآلـه أهون من تصديقها .

هو جسم وليست له صفة واحدة من صفات الأجسام .

فإن لم يكن كذلك فهو عدم تفسر به جميع الموجودات !! .

وهكذا ترى أن المشكلة لم تنحل فى شأن المكنة التى تقتبس منها الضوء وتستمع منها إلى أصوات الإذاعة ، وتسميها بما شئت من الأسماء ، وتعللها بما شئت من أمواج أو غير أمواج ، وكهرباء أو غير كهرباء .

فكيف تنحل مشكلة العقل بكلمة واحدة : هى أنه موجود ولا وجود له فى غير الدماغ ؟ .

ولا فى الدماغ إذن يا أستاذ سامحك الله !! .

إن السلوكيين Behaviourists أصحاب القول بالعقل الدماغى لا يحسبون مسألة التفكير بهذه البساطة التى تنحل حالا على هذا المنوال ، لأنهم يسلمون أنها « مشكلة » ثم يحاولون أن يفسروها فيخيل إليهم أنهم قد فسروها بقولهم إن التفكير مستمد من الكلام .

وفيثاغوراس سخيف عندك يا أستاذ .

فأعطنا الحق الذى سمحت به لنفسك ، لنقول على حق أن هؤلاء السلوكيين سخفاء .

فالمعقول أن الإنسان تكلم لأنه فكر ، وليس بمعقول أنه يفكر لأنه يتكلم ؛ إذ كان الحيوان خليقاً أن يتكلم ثم يفكر كما فعل الإنسان .

أما إن قيل إن الإنسان قد تكلم بعد أن أصبح جهاز النطق فيه صالحاً للنطق وجهاز التفكير فيه صالحاً للتفكير — فهذا هو العجب وليس هذا هو الحل الذى يبطل التعجب .

المصادفة العمياء تتمم جهاز النطق ، والمصادفة العمياء تتمم جهاز التفكير ، ويمضى هذا فى الظلام ويمضى ذلك فى الظلام ، ليتلاقيا معاً فى الظلام !! .

وقد انحلت المشكلة حالا بغير إبطاء .

يا أستاذ

إن المشكلة معك هى أنك لا تضع السؤال ، ولا عقدة حينئذ ولا إشكال .

فإن شئت فضع السؤال أولا ثم فكر فى الجواب ، وأنت تعرف « حالا » أن الذين لم يسرعوا إلى الجواب مثل إسراعك يعرفون على الأقل ما هو السؤال ، وإن لم يعرفوا على التحقيق كل ما يستدعيه من جواب .

عباس محمود العقاد

فى السياسة المغربية

للأستاذ محمد العربى العلمى

كتب الأستاذ محمود شاكر فى العدد (٧٥٨) مقالا بعنوان « لا تملوا » تناول فيه قضية الاستعمار الفرنسى فى المغرب من بعض جوانبها ، فلم يتعمق البحث ، ولم يستقص الوقائع ، ولم يتتبع المقدمات إلى نتائجها ، فأدى به ذلك إلى بعض ما لا تحمد عاقبته وأثره فى الوطنيين من أهل المغرب ، على حين اتهم زعماءهم وأهل الرأى فيهم بالسفه والغفلة والتخاذل والتهاون فى حقوق البلاد ، أو ما يشبه ذلك من أنواع التهم ليتخلص من ذلك إلى الإشادة برجل أو رجال من أهل المغرب آثروا البقاء فى مصر مختارين فسماهم بذلك مجاهدين وأبطالا وقادة ، حينما رمى غيرهم من زعماء المغرب بما رمى من أنواع التهم لأنهم آثروا أن يبقوا فى مجال المعركة بين مواطنيهم يشدون عزائمهم ويقودونهم للكفاح .

وقد كنت ممن تعرض لهم الأستاذ شاكر فى مقاله فحق لى بهذه الصفة أن أصحح بعض الوقائع التى ألقيت إليه فحكاها فى مقاله بلا تحقيق ولا روية .

ولست أتهم الأستاذ شاكرا فى عروبته ووطنيته وحذقه ، ولكنه قد رضى أن يدخل فى قضية ليس فى يده من أسبابها إلا حديث ألقى إليه فاعتقده كل الحق وأغفل ما وراءه من أسباب العلم إذ كان محدثه صديقاً غير متهم عنده بالهوى .

وللأستاذ شاكر موقف مثل هذا فى قضية المغرب نفسها منذ سنين وقد راجع فيه اليوم نفسه ؛ فقد كتب فى مجلة المقتطف منذ بضع عشرة سنة مقالا ضافياً يمجد فيه الشيخ عبدالحى ويصفه بما لم يوصف به الصديقون والشهداء والصالحون ، والشيخ يومئذ وإلى اليوم شوكة دامية فى جنوب الوطنيين . وقد عرف ذلك الأستاذ شاكر اليوم عن الزاهد العابد المحدث الراوية الذى وصفه بما وصف منذ بضع عشرة سنة بلا تحقيق ولا روية ؛ ثم انكشف له باطنه وقد كان حسبه هذا مثالا يحمله على ضرورة التروى قبل أن يكتب مقاله الأخير يصف به من يصف من المجاهدين بالغفلة والضعف ليضفى صفات البطولة والجد على القاعدين المترفين

ويتحدث الأستاذ شاكر فى مقاله عن حزب الشورى

والاستقلال بالمغرب فيزعم أنه حزب بلا شعب لأنه رئيس ونائبه بلا أعضاء ولا أنصار، إذ الأعضاء والأنصار والشعب المغربي كله لايستمعون إلا لرأى الزعماء القاعدين فى القاهرة؛ وهو يزعم إلى ذلك أن الزعيم محمد بن حسن الوزانى الذى يقود قضية المغرب اليوم كان فى سالف أيامه تبعاً من أتباع هؤلاء القاعدين ثم انشعب وأنشأ حزبه. ويزعم أن حزب الاستقلال الذى يرأسه علال الفاسى فى القاهرة هو الذى يمثل الرأى الحق حين ينادى من القاهرة بأن لامفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال، وأنه صاحب رأى المغاربة لا يبرم أمر دونه. ويزعم أن زعماء تونس والجزائر وممثليهم فى القاهرة يرون رأى علال الفاسى فى القعود وعدم المفاوضة.

يزعم هذا وغيره، وقد قلت إن ما أتى إليه من ذلك غير الحق، وأن الحديث عن هذه المزاعم من شأنه أن يفتح للقول أبواباً لعلها أن تفسد بين زعماء المغاربة وتضر قضية المغرب أكثر مما يفسد حديث المفاوضات وما يتوقع من منافسات الانتخاب وغير ذلك مما استوحاه الكاتب من الجو المصرى الذى يعيش فيه غير متفطن إلى أنه يتحدث عن بلاد لم يرها وليس له من أسباب العلم بها وبأهلها إلا القليل أو ما دون القليل.

أما زعمه أن حزب الشورى والاستقلال لا شعب له ولا أنصار فلست أستطيع أن أرد عليه رأيه فى ذلك ما دام بعيداً عن البلاد؛ وهى على كل حال قضية حزبية ليس من حسن الرأى أن يشتغل بها قراء الرسالة، إذ كان البرهان العملى فيها فى المغرب نفسه لا على صفحات جرائد القاهرة. وثمة برهان عملى آخر على مكانة حزب الشورى فى المغرب هو مابذل من تضحيات، وما لقى رئيسه وأعضاؤه من نفى وتشريد، وما زهق من أرواح مجاهدين تحت سياط الفرنسيين فى صحراء المغرب، ولم يرجع آخر أعضائه من المنافى والسجون منذ سنة ١٩٣٧ إلا فى سنة ١٩٤٦. ولو علم الكاتب أن المعاهد العلمية الوطنية التى أنشأها هذا الحزب (مضافة إلى أنواع الجهاد الوطنى) تضم فى مختلف بلاد المغرب أكثر من ٣٥ ألف تلميذ وتلميذة لعرف ما فى اتهامه لهذا الحزب من التجنى والجحود.

أما أن حزب علال الفاسى يرى أن لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال فقول جديد لم نسمع به. وقد حاول علال نفسه أن يفاوض الفرنسيين فى العام الماضى، ومضى فى هذه المحاولة خطوات واتصل ما بينه وبين المقيم الفرنسى السابق قبل أن يأخذ حزب الشورى فى مباحثاته الجارية. ولسنا بهذا ننكر على علال أو غيره محاولته وإنما نريد أن نؤكد للكاتب أن فكرة لا مفاوضة هذه إنما نشأت منذ قريب لأسباب لا أجد داعياً لاشتغال قراء الرسالة بها.

وحزب الشورى وإن كان يمثل الأكثرية فى المغرب لا يريد أن يقطع السبيل على أحد من المجاهدين أو يبرم رأياً لا تقتضيه البلاد ملكاً وشعباً. وإذا كان هناك من ينبغى أن ترجع إليه الصحف المصرية فى قضية مراكش فهو الأمير عبد الكريم الرجل الذى لايدفع أحد فى الشرق ولا فى المغرب زعامته وإخلاصه ووطنيته التى ترتفع فوق الأهواء الحزبية المضللة. ولعلى لا أكون فضوليا ان زعمت أن الذين ذكرهم الأستاذ شاكر من زعماء تونس والجزائر ليسوا معه على الرأى الذى نسب إليهم. وأرى من حقى بعد ذلك على الرسالة وقرائها وعلى الأستاذ شاكر نفسه وهو عندى أرفع منزلة مما وضع نفسه أن أبين له ولهم أن إقحام المثقفين من قراء الرسالة فى قضية حزبية كهذه القضية التى نحن بصددها ليس من مصلحة المغرب ولا من مصلحة العرب، وليس فيه شىء من الحكمة وأصالة الرأى وبخاصة فى هذا الوقت الذى اجتمعت فيه أحزاب المغرب جميعاً على رأى مشترك وهدف موحد فى لجنة التحرير التى أنشئت بالقاهرة منذ أيام بحسن رأى سمو الأمير المجاهد محمد بن عبد الكريم ورياسته، فقد كان الأمل أن يحرص أبناء العروبة جميعاً على تدعيم هذا الائتلاف الوطنى المغربى الذى تمثله هذه الهيئة الناشئة لا أن يحاول كاتب ذو مكانة مثل الأستاذ شاكر أن يحمل فيه ثلمة ويلقى حوله بذرة من بذور الشقاق!

أما حديث المفاوضة قبل الجلاء أو بعد الجلاء فإننا نأمل أن لا يتأثر إخواننا فى مصر بالجو الذى يعيشون فيه حين يعرضون للحديث عنه وعن قضايا بلاد لا يعرفون على وجه التدقيق ولا التقريب عن جوها السياسى شيئاً. وحسبى هذا التلميح دون التصريح خدمة لقضية المغرب العربى. وأحب أن أؤكد للأستاذ شاكر أن ما يجرى الآن إنما هو مخابرات، وأنه لن يدخل فى أية مفاوضة إلا بعد إعلان استقلال البلاد.

محمد العربى العلمى

مسابقة الفلسفة لطلاب السنة التوجيهية (١، ٢)

١ – فيـــــدون

للأســـــتاذ كمال دسوقي

للمحاورة من المحاورات الأفلاطونيـة تاريخان : تاريخ حدوث وتاريخ تدوين ، وقد تكون الواحدة منها من أولى المحاورات وقوعاً وآخرها تدويناً – وقد تكون العكس – حسبما تصادف الرواية من ظروف الجدل على يد سقراط ، والكتابة على يد أفلاطون .

وفيدون آخر المحاورات السـقراطية وقوعاً على التحقيق لأنها تنتهي بآخر مشهد من حياة سقراط ؛ بتجرعه السم وموته ، ولهذا يؤرخ لها بسنة تسع وتسعين وثلثمائة التي مات فيها سقراط على أرجح الآراء . ومع هذا فهي ليست من أوائل المحاورات تدويناً عند أفلاطون – لما يبدو فيها من العمق والمثالية التي هي أدنى إلى الأفلاطونية – مع أن المؤرخين يسلـكونها في المرحلة الأولى من تأليف أفلاطون : أو طيفرون ، واحتجاج سقراط ، وأقريطون ، وفيدون – التي يسمونها المرحلة السقراطية لقرب عهدها به ؛ ولذلك فالمنتظر أن يكون فيدون قد روى هذه المحاورة – ودونها أفلاطون بالتالي ، بعد زمن طويل من وفاة سقراط .

والمحاورة قسمان غير متعادلين ، يفصل بينهما انصراف سقراط إلى ذكر شيء من تجربة – حين بلغ الشك مبلغه في نفس محدثيه ، وكان من قبل قد استطاع أن يزيل كل شك في نفسيهما ، أما هنا – فهو يتوقف عن الجدل مضطراً لـكي يتحدث عن نفسه واشتغاله بالعلوم والمذاهب .

والقسم الأول هو إذن أكبر القسمين – ويتناول ، بعد شيء من المقدمات تتعلق بظروف المحاورة وشهودها وما انتابهم من شعور ، ثم زوجة سقراط – وفك أغلاله . الخ – تقول – يتناول الموت والانتحار وموقف الفيلسوف من كليهما ، والحديث عن الموت بوصفه « انفصال الروح عن الجسد » يستتبع الحديث عن الروح والبدن ، والتفرقة بين المحسوس والمثالي المطلق ، حيث ينتهي سـقراط إلى أن سبيل المعرفة الأوحد أن تعود الروح إلى مفارقة البدن ، وإلى أن واجب الفيلسوف أن يُعِدّ نفسه للموت . ويثير هذا خوفاً على مصير الأرواح في نفس سيبيس Cebes – فيطمئنه سقراط على خلود الروح بأدلة ثلاثة يتبعها رابع – تثير مناقشتها مشكلات التذكر والتضاد وأزلية الروح وأبديتها ... وتناسقها وتناسخها .. الخ ...

ولنفصل القول بإيجاز في كل مشكلة من هذه .

١ – الموت والانتحار :

١ – الحكيم لا يهاب الموت ولا يحفـله – بل ينشده ويرحب به – فهل معنى هذا أن ينتحر ؟ وهل له بدلا من أن ينتظر وقوع الموت ويستجديه من الآلهة أن يضع لحياته حداً ؟ لا – إن عليه أن يضع نفسه حيث وضعته الآلهة ، وألا يخلص روحه من سجن البدن إلا متى أرادت ، فالآلهة أدرى بخيره منه – وهو حين يخرج على إرادتهم بفعل هـذه الجريمة – كالثور أو الحمار يعصى صاحبه – فقد ارتـكب أكثر من نكر واحد :

(ا) فهو أولا قد ظن في نفسه القدرة على الموت والحياة . وهو خلو منها .

(ب) وافترض في نفسه حكمة أكثر من الآلهة – ومعرفة بخيره مهم – وعناية بنفسه أكثر من عنايتهم ، حيث يكون الخير في الواقع ما أرادوه هم – ولو كان سجناً أو موتاً وهو الذي يفر من خيره في غير حكمة .

(ج) ثم هو يهب نفسه حرية واختياراً أن يفعل ما يشاء أكثر مما له في الحقيقة .

والنتيجة أن واجب الفيلسوف أن يرغب الموت ولا يرتكبه ، ولـكن له أن يحاول فصل روحه عن بدنه وتعطيل حواسه عن فكره حتى يتهيأ له سبيل المعرفة الصحيح ، ووسيلة التطهير والخلاص . وعليه حتى حين الخلاص النهائي أن يعهد نفسه له ، وأن يميتها مرة ومرات ، فيعادي البدن ويتجنب كل ما يمت إليه بسبب ، حتى تحصل روحه الحكمة من العالم الآخر قبل أن تصل إليه ، وحتى تألف الموت فلا تفزع له أو تفرق منه ، وبهذا المران على تطهير الروح يصل إلى الاعتدال الذي لا تطرق معه في صفة من الصفات ، كما يصبح سعيه للحكمة وخلاص النفس وتطهيرها مقصوداً لذاته ، لا لمقايضة ومبادلة أو ترجح للذة أو خير أبعد – بمعنى أن يتطلبوا بالحكمة لا يبغونها لنفع أو غرض

٢ — خلود الروح :

وهنا يسوق سيبيس على لسان العامة تشكيكاً في مصير الروح بعد انفصالها عن الجسد ، وقولهم إنها تصبح هباء أو دخاناً تذروه الرياح — فيقدم له سقراط الأدلة على بقاء الروح في العالم الأزلي — وسنسوقها بترتيب ورودها .

٢ — فأولاً يقدم سقراط دليلاً يبدو أنه يريد به نظرية تناسخ الأرواح Transmigration أي انتقالها من بدن إلى آخر بعد موته — وإلى هذا يرمز بقوله « المذهب القديم الذي كنت أتحدث عنه » أي الفيثاغورية ؛ وعلى هذا فلا بد أن تظل الروح باقية كيما يخرج الحي من الميت . ولا تقوم صحة هذا الدليل إلا إذا سلمنا بهذه النظرية الفيثاغورية ، بمعنى أنه إذا قام الدليل على أن الحي لا يولد إلا من الميت ، فقد صحت النظرية ، وثبت بالتالي خلود الروح وتناسخها ، وإذا لم يقم على ذلك دليل سقطت هذه الحجة

ب — ولكي يقدم سقراط دليلا آخر يبحث مسألة التضاد فيما بين الأشياء : الكبير والصغير . والعدل والظلم ، واليقظة والنوم ... الخ والفعل الذي به يتم الانتقال من الضد إلى الضد ذهاباً وجيئة ، وينتهي إلى أن الموت الذي نراه ، لا بد أن يكون ضده الحياة التي لا نراها موجودة — فأرواحنا لابد إذن موجودة في العالم الأدنى — والحي لا بد أن يكون خروجه من الميت كذلك ، وإلا لا نعدم توالد الأشياء وأصبح مصيرها مصير « أنديميون » النائم أبداً — فهذا الدور أو التعاقب بين الأضداد هو الذي يؤكد لنا خلود الروح ... وهذا الدليل كما نرى وجودي فكري أكثر منه حقيقياً ، فالتضاد بين الأشياء مقولة من مقولات الفكر ، ومن عمل العقل والمنطق — نحن ندرك النوم باليقظة — ونميز الصحة بالمرض ، ولكن ليس محتوما أن يتولد المرض من الصحة ولا النوم من اليقظة . حقاً إن الكون والفساد من نواميس الطبيعة — التي هي كما يقول — لا يفترض أنها تسير على ساق واحدة فحسب — وما لم نسلم بنظرية التناسخ السابقة — فإن هذه الحجة لا تدل وحدها على خلود الروح .

(حـ) والحجة الثالثة هي نظرية التذكر ، ويقصد بها أن أرواحنا قد أقامت قبل حلولها في البدن في عالم آخر نتذكر الآن ما عرفته فيه من قبل ، ودليلها — كما في محاورة مينون — الإجابة الصحيحة التي يدل بها شخص ما عن سؤال صحيح يوجه إليه — ويكون التذكر بالتلازم — كالمحبوب والقيثارة — وسيمياس وسيبيس — أو بالتشابه أو التضاد — كما في الحجة السابقة ، أو بالتساوي الذي يوجد مثاله — كمثل المثل — في عالم التجريد والذي نقيس عليه تساوي العصي أو الحجارة أو قطع الخشب — التي ليست في حقيقتها متساوية — بل تنزع إلى التساوي الحق دون أن تبلغه — وهذه المُثل نحن لم ندركها بالحواس ، بل الحواس هي التي تذكرنا بها في عالم المثل . وقد ولدنا ومعنا هذه المعرفة — أي أننا قد حصلناها قبل أن نولد — وها نحن الآن نتذكرها بطريق الحواس ؛ وإلا فلو أننا قد حصلناها ساعة الميلاد أو بعده — فكيف سلبت منا بعد أن أعطيت لنا حتى ننساها ثم نعود فنتذكرها — وإذن فأرواحنا قد كانت موجودة قبل أن نولد ، وكذلك المثل المطلقة للخير والعدل والحق والتساوي ... الخ التي تذكرنا بها حواسنا الآن . وهذه الحجة تثبت أزلية الروح — ولا تثبت أبديتها — كما شك سيمياس ، وعليه يرد سقراط بأنه من مجموع هذه الأدلة يقوم الدليل على خلود الروح .

(ء) على أن أهم دليل يقدمه سقراط على خلود الروح — هو الحجة القائلة — بأنه إذا كان الجسم يفنى لأنه مركب يتحلل بالفساد — فالروح باقية لأنها بسيطة لا تتحلل ولا يجوز عليها التغير — لأنها ثابتة خفية يدركها العقل ولا تقف عليها أي الحواس ، وبذلك فهي أبدية خالدة شأن كل ما هو إلهي — حقاً أن المادة الجسمية تغشى بكثافتها على صفاء الروح وتدنسها بمخالطتها ، ولكن الفلسفة كما قلنا هي وسيلة تطهير البدن من هذا الجسم وإماتته مرات قبل أن يموت نهائياً — فإذا صح هذا التدرب على إماتة الجسد — رحلت الروح آخر الأمر نقية طاهرة ، ورفلت في نعيم إلهي مقيم . أما إذا كانت الروح تجر وراءها دنس المادة وكدر الشهوة ، لم تزل تحوم حائرة حول القابر — جزاء إثم أصحابها الفجار في الحياة . وربما تقمصت هذه الأرواح الفاجرة الشريرة أجسام حمير أو ذئاب أو حدأ يزاولون فيها ميولهم وطباعهم ، ولذا كانت الفلسفة سبيلا لتحرر الفيلسوف ، واعتداله ، وتخلص روحه وخلودها سعيدة مع الآلهة . ولذلك أيضاً لم يكن سقراط أكثر اعتدالا أو هناءة أو تغريداً في أي وقت من حياته منه ساعة إعدامه — وهو يشبه نفسه بطيور التم swans التي تزيد تغريدها قبيل موتها .

(يتبع)

كمال دسوقي
المدرس بالمنصورة الثانوية

حول رســـــائل
الصاحب بن عباد واعتزاله

للأســــتاذ محمد خليفه التونسى

قدم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى إلى قراء « الرسالة » فى عددها ٧٥٥ رسائل الصاحب بن عباد التى حققها وقدم لها الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، والدكتور شوقى ضيف المدرس بها ، وكان مما عرض الدكتور الأهوانى — ومن قبله المحققان — نزعة الصاحب إلى الاعتزال ، فقرر أنه وقف طويلا عنـد قول المحققين للرسائل : « ونحن نجد فى الرسائل نزعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه » وأشار إلى أن البحث فى الاعتزال والكلام وما يتصل بهما مما تهفو إليه نفسه ، وليس هذا بغريب منه وهو معنى بالفلسفة ، كما أشار إلى أنه كان يحب أن يجد فى الرسائل ما يشبع رغبته ويرى من نصوص الصاحب نفسه ما يؤيد قول ياقوت : إن الصاحب كان « مثل أبيه يذهب مذهب الاعتزال » وذكر أن ما اعتمد عليه المحققان فى نسـبة الاعتزال إليه ثلاثة نصوص فى الرسائل نقلها الدكتور، وأشار إلى مواضعها من الرسائل ، أحدها فى الرسالة التاسـعة من الباب العاشر وهو باب التمازى ، ذكر فيها تعديل الله ولطفه فى صنعه وصلاح فعله ، وثانيها فى الرسالة الثانية من الباب السابع عشر وهو باب الآداب والمواعظ ، ذكر فيها الصاحب بلداً كان مستغلقاً « على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعده ووعيده » وثالث النصوص فى الرسالة الثالثة من الباب العاشر أيضاً ، وهى رسالة إلى أهل الصيمرة وصفهم فيها بشهرتهم « بالذب عن توحيد الله وعدله ، وصدقه فى وعيده ووعده » وكان بلدكم من بين البلاد كفرة[1] أدهم ، وشهاب فى ليل مظلم ، وما فى النعم أجل موقعاً وأهنأ مشرعاً ، من النعمة فى القول بالحق والدعاء إليه ، والتدين به والبعث عليه ، ومهانة

(١) كتبت هذه الكلمة « كفرة » بالفاء وربما كان التصحيف من الرسالة .

من شـبه الله بخلقه فتتابع[1] فى جهده ، أو جوره فى فعله ، فشك فى حسن نظره وطوله »

وقد علق الدكتور الأهوانى على النص الثانى بقوله « وشهرة المعتزلة بأنهم أهل العدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، أعظم من شهرتهم بالتعديل[2] والصلاح » كما علق على النص الثالث بقوله « وهذا نص آخر أكثر فى الاعتزال بياناً ، فيه العدل والتوحيد والصدق فى الوعد والوعيد ، ونفى التشبيه ، وامتناع التجوير » وقد وجد الدكتور فى هذه النصوص بعد أن وضحها على هـذا النحو ما يكفى فى نسبة الاعتزال إلى الصاحب ، فعقب عليها بقوله « وهنا نستطيع أن نطمئن إلى ما ذكره عنه ياقوت من أنه كان يذهب مذهب الاعتزال » واستدرك على محققى الرسائل ترددهما فقال « ولـكن الدكتور عزام بك والدكتور ضيف لا يطمئنان إلى أن الاعتزال « أكان هذا من عمله هو أم من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب — فيما يظهر — إلى الاعتزال . »

ولى أربع ملاحظات على ما سردته هنا من كلام الدكتور الأهوانى وما يتضمنه من كلام الدكتورين المحققين والمهدة عليه

(١) حكذا نقل الدكتور الأهوانى الجملة عن الرسائل ، وأرى أن فى الكلمة الأولى تصحيفاً وفى الأخيرة تحريفاً ، وأن صوابها « فتتايع فى حقه » مراعاة للسجع الذى كان من سنن كتاب هذا العصر وآفاتهم ، وكان الصاحب مبتلى بهذه الآفة أكثر من غيره ، ونقل أبو حيان التوحيدى عن ابن المسبى فى ذلك كلاماً طريفاً جداً يضيق عنه المقام (راجع معجم الأدباء ٦ / ٢٠٧ / ٨ ٢) ومعنى التتايع فى الشىء التهافت فيه والإسراع إليه ، قال صاحب لسان العرب « يقال تتايعوا فى الشر إذا تهافتوا وسارعوا إليه ، وفى حديثه صلى الله عليه وسلم : « ما يحملكم على أن تتايعوا فى الكذب كما يتتايع الفراش فى النار » . والتتايع الوقوع فى الشر من غير فكرة ولا روية ، والمتايعة عليه ولا يكون فى الخير ، ويقال فى التتايع إنه اللجاجة ... وقيل التتايع فى الشر كالتتايع فى الخير .. فالتتايع هنا بكل معنى من معانيه مناسب ومعنى الجملة « فتهافت فى حق الله وأسرع إلى الوقوع به من غير فكرة ولا روية لأنه شبه الله بخلقه فجعله كبعض خلقه ، وهو من أجل ذلك استحق المهانة وكانت مهانة الإنسان إياه من النعم الجليلة الموقع ، الهنيئة المشرع » وهناك قراءة للنص دون هذه « ومهانة من شبه الله بخلقه فتتايع فى جهله ، أو جوره فى فعله فشك فى حسن نظره وطوله » والهاء فى جهله لمن شبه الله بخلقه ، والمعنى واضح ، والقراءة الأولى أفضل فيما أرى والمقام يضيق عن ذكر أسباب التفضيل :

(٢) يلاحظ أن معنى تعديل الله وصفه بالعدل فلا معنى للقول « وشهرة المعتزلة بأنهم أهل العدل أعظم من شهرتهم بالتعديل » فهما شىء واحد .

هو فيما نقلت عنهما وعن الرسائل إذ لم يتح لى حتى الآن الاطلاع عليها كما نشرها المحققان الفاضلان .

أولها : ما أشار إليه المحققان ، ونقله الدكتور الأهوانى من نصوص الصاحب الثلاثة — المشار إليها قبل — ولا سيما ثالثها يحمل الباحث على الاطمئنان إلى أن الصاحب كان يقول بالتوحيد والعدل ، والوعد والوعيد ، وهذه — دون شك — أصول ثلاثة من أصول مذهب المعتزلة الكلامى ، ولا داعى للتشكك فى نسبتها إلى الصاحب مع ورودها فى نصوصه ، إذ ليس الباحث مطالباً ببينات أقوى ولا أكثر من هذه البينات ، وإن كان مما يرحب به وجود بينات نصية كذلك تكون أكثر تفصيلا ليضمها إلى ما لديه ، كما أنه ليس على الباحث أن ينبش عن قلب الرجل ليرى ما فى سريرته ، ولا مبرر بعد ذلك للشك أو التردد حتى يثبت أن للصاحب نصوصاً تعارض هذه النصوص ، وهذا ما لم يثبت حتى الآن . والدكتور الأهوانى لم يحد عن مسلك العالم حين اطمأن إلى نسبة هذه الأصول الثلاثة إلى الصاحب ، ولم يتابع المحققين فى شكهما وترددهما ، وأنا أشاركه هذا الاطمئنان ؛ ولكنى لا أذهب معه إلى أكثر من نسبة هذه الأصول إليه ، ولا أتعدى معه إلى القول باعتزال الصاحب على الإطلاق بهذه النصوص وحدها حسبما ذكر الدكتور اتباعاً لرأى ياقوت فيه ، وسأوضح هذا فى الملاحظة الرابعة .

ثانيتها : ومن أجل هذا الاطمئنان حقّ للدكتور أن يستدرك على المحققين ترددهما الذى لامبرر له ، وعدم جوابهما على سؤالهما « أكان هذا (أى الاعتزال) من عمله هو ، أم من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة — فيما يظهر — يذهب إلى الاعتزال »

والشك — كما يظهر من السؤال — لامبرر له بعد النصوص السابقة — إلى ما ذكر ياقوت ونقل هنا — ولو لم يكن لدينا غيرها ، فضلا عما سنذكر فى الملاحظة الثالثة ، كما أن السؤال لا موضع له على هذا النحو ، فماذا يطعن فى اعتزال الصاحب إن كان من عمله هو أو من عمل الدولة ؟ لنفرض أبعد الفروض وهو أن الاعتزال كان من عمل الدولة لأنه كما ذكر المحققان — « قد كان عضد الدولة يذهب فيما يظهر — إلى الاعتزال » فهل يوهن ذلك من اعتزال الصاحب ويحملنا على الشك فيه ؟ ليكن أن « عضد الدولة يذهب — فيما يظهر — إلى الاعتزال » أولا يكن ، فأى قيمة لاعتزال عضد الدولة فى هذا الموضع لنزج به فيه ؟ أيطعن فى إسلام ثابت لوزير أن يكون الملك الذى استوزره مسلماً ، وأن تكون دولته إسلامية ؟ ثم ما قيمة اعتزال عضد الدولة إن كان منتهى الثقة فى القول به أنه — كما ذكر المحققان — فيما يظهر لهما ، لا فيما ثبت لهما ثبوتاً قاطعاً أو راجحاً ؟ ثم ما قيمته إذا لم يكن هناك دليل عليه ؟ بل ما قيمته إذا لم يثبت أن عضد الدولة كان يؤثر المعتزلة دون غيرهم بامتياز يدل على ميله إليهم فضلا عن ذهابه مذهبهم ؟

لقد قرأت مما كتب فى تاريخ عضد الدولة — وما هو بالقليل — فلم أجد فيه ما يدل على أن عضد الدولة كان يؤثر مذهب الاعتزال أو المعتزلة بعطف خاص ؟ فمن أين هذا الذى ظهر للمحققين الفاضلين حين أشارا إلى اعتزاله ؟ وكيف ظهر لهما ؟

لا أزعم أنى قرأت من تاريخ عضد الدولة أكثر مما قرأ المحققان ، فلعل عندهما علم ما لا أعلم منه ، وهما — دون شك — أكثر اطلاعاً وفهماً منى ، ولست أبغى من معرفة ما ظهر لهما من اعتزال الصاحب غير مصدره وكيفية ظهوره !

ومع هذا قد وقفت فى دراستى لتاريخ الاعتزال على أن هذا المذهب كان دائماً قوياً فى أيام عضد الدولة وفى دولته خاصة ، إذ ظهر فيها كثير من شيوخ الاعتزال ، وتولى بعضهم الأعمال لها ، ومنهم من كان على صلة بعضد الدولة نفسه ، وكانت الدولة تعرفهم وتعرف ميولهم واعتناقهم الاعتزال ، ومع ذلك لم تجد ما يدل من قريب ولا بعيد أن الدولة كانت تؤثرهم بعناية خاصة إلا فى أيام الصاحب نفسه ، وهذا الإيثار كان من عمل الصاحب وحده لا من عمل الدولة ، ومن المعروف أن عضد الدولة — هذا الذى يرى المحققان فيما ظهر لهما أنه يذهب إلى الاعتزال — جاءته رسالة من ملك الروم فأجاب عنها فى سنة ٣٧١ هـ ولم يختر لحمل جوابه عنها إلا أبا بكر محمد بن الطيب الأشعرى المعروف بابن الباقلانى أو الباقلانى ، وابن الباقلانى كان — دون شك — متكلما على مذهب الأشعرى شيخ أهل السنة ، وكان من أشد خصوم المعتزلة ، ألف الكتب للرد عليهم والحط من أقدارهم . ويروى أنه أبى أن يخضع لرسوم البلاط البويهى حين لقى عضد الدولة فلم يكفر له[1] فى مدينته . أفلم يكن

(١) كان من رسم الرعية فى مقابلة الملك أن تقبل الأرض بين يديه وهو المقصود هنا . (تاريخ بغداد ٥/٣٧٩) .

فى دولة عضد الدولة من رجال المعتزلة الذين تعرفهم الدولة وتعرف فضلهم من يحمل هذا الجواب كما حمله ابن الباقلانى السُّنِّيّ خصم المعتزلة ؟

لو أن الدولة البويهية عطفت على المعتزلة وآثرتهم بعناية خاصة لكان هذا موافقاً لأصلها العام لأنها شيعية زيدية ، والزيدية فى كل زمان ومكان — منذ عهد زعيمهم زيد بن على تلميذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة — يدينون بالاعتزال أصوله كلها أو بعضها ، أو يعطفون عليه ، وكانت الفتن كثيرة فى عهد الدولة البويهية بين أهل السنة والشيعة ، وكانت الدولة دائماً تنصر الشيعة على أهل السنة ، بل كان بعض هذه الفتن يثير أهل السنة تمرداً على تشيع الدولة ، ومع ذلك لم نقرأ خبراً عن فتنة بين المعتزلة وأهل السنة نصرت الدولة فيها المعتزلة على أهل السنة كما نصرت الشيعة عليهم

لقد ظهر الصاحب فى عهد ركن الدولة وعضد الدولة ، ووزر لمؤيد الدولة ثم أخيه فخر الدولة ، فأما ركن الدولة فلا نعلم من أمر نظره إلى الاعتزال إلا خبراً واحداً مؤداه أنه أرسل مرة إلى الصاحب عيناً من عيونه يشاكسه فى مجلسه ويتحدى سلطانه ومذهبه الاعتزالى ويجادله فى بعض تعاليمه : وهو القول بخلق القرآن[1] . وأما عضد الدولة فقد قدمنا مبلغ علمنا فى نظره إلى الاعتزال ، وأما مؤيد الدولة فلا أعرف من أخباره ما يدل على ولاء ولا عداء للاعتزال ، وأما فخر الدولة فلا نعرف فى نظره إلى الاعتزال غير خبر واحد ذكره الصاحب فى صدد علاقته واحتشامه فقال[2] : ما استؤذن لى على فخر الدولة وهو فى مجلس الأنس إلا انتقل إلى مجلس الحشمة فيأذن لى فيه ، وما أذكر أنه تبذل بين يدى ومازحنى قط إلا مرة واحدة فإنه قال لى فى شجون الحديث : « بلغنى أنك تقول : المذهب مذهب الاعتزال ، والنيل[3] نيل الرجال »

فأظهرت الكراهة لانبساطه ؛ وقلت : « بنا من الجد ما لا نفرغ معه للهزل » ونهضت كالمغاضب ، فما زال يعتذر إلى مراسلة حتى عاودت مجلسه ، ولم يعد بعدها لما يجرى مجرى الهزل والمرح[1] »

وليس فى هذا الخبر ما يدل على أن فخر الدولة يشارك وزيره اعتزاله ، ولا أنه يرى للاعتزال امتيازاً على غيره ، وإلا لم يستدرك على الصاحب مَيْزَهُ الاعتزال بعنايته من سائر المذاهب الإسلامية الكلامية .

هذا إلى أن فخر الدولة — كما يجب أن يعلم — كان يعرف خطر وزيره فى دولته ، وحاجته إليه فى تدبيرها بل فضله عليه إذ جمله هو وأعوانه على أملاك أخيه مؤيد الدولة فى أصفهان بعد موته سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٤ م) وأضاف إليها غيرها من حصون المتمردين عليها ، وكانت كلمته فوق كلمة ملكه فى دولته ، ولم يكن ينزل عن جلاله وكبريائه وحشمته معه .

ومن هذا العرض الموجز تنكشف علاقة ملوك الدولة البويهية الذين عاصرهم الصاحب جميعاً بالاعتزال والمعتزلة ، وليس فيه من قريب ولا بعيد أية دلالة على تحيز من الدولة أيام الصاحب إلى الاعتزال فضلا عن اعتناقه .

ومن ها هنا يتضح لنا أن لا موضع للسؤال الذى سأله المحققان الفاضلان كما نقله عنهما الدكتور الأهوانى فى استدراكه عليهما فقال « ... فقال ولكن الدكتور عزام بك والدكتور ضيف لا يطمئنان إلى أن الاعتزال « أكان من عمله هو (الصاحب) أم من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب — فيما يظهر — إلى الاعتزال

بل إن هذا السؤال الذى ترك المحققان الجواب عنه دون مبرر — يتضح من وضعه على هذا النحو أنه محاولة للافلات من القضاء بحكم مع هذه المقدمات الواضحة ، وهذه المحاولة لم تحل الإشكال الأصيل بل خلقت إشكالا آخر لم يكن داع لخلقه ، وأقحمته فى غير موضعه ، ثم تركته دون حل كما تركت سابقه ، وأثارت شكا لا موضع له ولا حاجة إليه ، وكان حل الإشكالين ميسوراً .

(له بقية) محمد خليفة التونسى

(١) معجم الأدباء ٦/٢٠٩ — ٢١٣ نقلا عن كتاب أخلاق الوزيرين لأبى حيان التوحيدى الذى يحكى الخبر كما عاينه فى حضرة الصاحب ، ويبدو لى أن فى النص (ص ٢١٣) اضطراباً إذ أسند الجاسوس القول بخلق القرآن إلى خصم الصاحب ، مع أن القول بخلقه من مستلزمات التوحيد عند المعتزلة ، وما دام الصاحب يتدين بهذا المبدأ على طريقتهم فلا مناص من أنه كان يقول بخلق القرآن .

(٢) عن يتيمة الدهر للثعالبى ٣/١٧٩ — ١٨٠ ، وقد نقله عنها ياقوت مع تغيير طفيف (معجم الأدباء ٦/٢٨٤) وهو فى اليتيمة أخصر وأقوم .

(٣) الكلمتان فى المصدرين السابقين فاحشتان ، وقد اقتديت فى كتابتهما هكذا بما فعله المرحوم أحمد زكى باشا فى نشرته كتاب « التاج فى أخلاق الملوك » للجاحظ (ص ٧٩ منه) واقتدى هو فيه بطابع كتاب « طراز المجالس » للشهاب الخفاجى ص ٧٩ .

(١) الكلمة فى نص اليتيمة « المزح » ولا موضع لها ، ووردت مصحفة فى معجم الأدباء ، ويجوز أن تكون « المدح » فصحفت .

طرائف من العصر المملوكي :

الحـــركة العلمية

للأســـتاذ محمود رزق سليم

جميل بنا أن نعنى بدراسة تاريخ مصر ، ونتعرف إلى نواحيه المختلفة ، لنشهد ما قدمه بنوها فى أجيالهم المتعاقبة من جهود فى مضمار العلم والأدب ، ولنعرف مكاننا من المدنية ، وموقفنا من الحضارة الفكرية . فإن مصر فى عصورها المتعددة كانت تشترك باستمرار وبرغبة ذاتية فى بناء المدنية والحضارة ، وتسعى دائبة لرفع لوائهما ونشر سلطانهما .

والعصر الذى نحن بصدده ، عصر فريد من عصور مصر ، وبخاصة فى اتجاهاته العلمية . وهو لذلك جدير بالبحث والتمحيص أكثر مما بحث ومحص . بل لا أغلو إذا قلت إن الغموض لا يزال يكتنفه من نواح عدة . بل لا تزال الفكرة المركزة فى أذهان كثير من الأدباء عنه ، مشوهة ظالمة . ولذلك يتأبى بعضهم على البحث فيه وتمحيص نواحيه . مع أن أبناءه حملوا من أمانة العلم والأدب مايئود . ألقته القادير على كواهلهم إلقاء ، فحملوا الأمانة وأدوا الرساله ، صابرين فى الحمل ، محسنين فى الأداء .

نهضت بغداد من قبل ، برسالة العلم والأدب زهاء خمسة قرون وكانت — فى الجملة — شمساً للبلاد الإسلامية شرقيها وغربيها تستضيء بهديهـــا ، وتسير على قبس منها . فلما دهمها التتار عام٦٥٦هـ ، وأزالوا خلافتها ، ونكلوا بأبنائها وعبثوا بمؤلفاتها ، ضاعت بذلك ثمار كثيرة من ثمار هذه القرون الخمسة ، ووقفت بها رحى العلوم والآداب إلا لماماً لماما . هنا لم تجد القاهرة بدا من الظهور فى الميدان ، أكثر مما كانت ظاهرة ، وتقدمت لحمل أمانة العلم والأدب برغبة وشجاعة . ولولا تقدمها لخبا الزناد وكبا الجواد ، وانقطعت سلسلة العلوم والآداب الإسلامية ، وتوارت عن الأنظار أمداً طويلا .

وقد هيأ الله للقاهرة من الأسباب ماعاونها على بلوغ غايتها . فقد كانت حينئذاك عاصمة لأقوى مملكة إسلامية ، ورزقت ملوكا أحسوا أن عليهم واجب حماية الدين والحرص على بلاد المسلمين . فدافعوا عنها أعداءها ،ووطئوا للعلماء أكتافهم،ورحبوا بالقادمين منهم إلى مصر . وأغرى العلماء مافى مصر من خير وكرم وحسن وفادة وطيب لقاء . فوفدوا إليها تباعامن كل فج، واتخذها بعضهم دار مقام ، حتى أصبحت منتدى العرب ومحج المسلمين ، وقبلة علمائهم وطلاب العلم فيهم ، من كل بلد ومحلة .

وقد دعمت هذه الحياة بتجديد الخلافة الإسلامية منذ عصر الظاهر بيبرس . فأصبحت الخلافة — على علاتها — ذات قوة أدبية لها تأثيرها الروحى فى نشاط الحركة العلمية الإسلامية ، وعاونت مصر على أن تكون بيئة دينية صالحة جليلة القدر ، ينبت فيها ويفيء إليها علماء الدين على اختلاف مذاهبهم .

ولم يدخر السلاطين وسعاً — كما نوهنا — فى تبجيل العلماء وتعظيمهم أمام الخاصة والعامة ، حتى اطمأنت نفوسهم ، ولم يلههم عن الإنتاج العلمى شيء من جوع أو خوف . وحرصت أجيالهم الناشئة على متابعة جهودهم العلمية لتظل لهم هذه المنزلة السامية لدى السلاطين والشعب .

ونذكر منهم على سبيل المثال : عز الدين بن عبد السلام وكان يدعى بسلطان العلماء ، وكان الظاهر بيبرس يهابه ويقدر رأيه . وتقى الدين بن دقيق العيد ، كان السلطان لاجين يقبل يده . وعلاء الدين السيرامى فرش له السلطان برقوق السجادة بيده .

وإلى جانب هذا سرت فى السلاطين والأمراء ومن إليهم ، روح عجيبة قوية لإبقاء أثرهم وتخليد ذكرهم . واتخـذوا إنشاء المساجد الجامعة فى مقدمة وسائل هذا الإبقاء والتخليد ، قربى إلى الله وزلفى ، وليتعبد فيها الناس وليتفقهوا فى دينهم . وقرروا فيها الدروس، وعينوا لكل درس شيخاً ، ورصدوا لذلك الأوقاف الطائلة ، ليفيضوا لهذه المدارس بقاء طويلا ، وأجروا على الطلبة المنقطعين فيها لطلب العلم نفقات وأطعمة وأكسية ، وألحقوا بكل مدرسة دار كتب قيمة ، حشدوا إليها الآلاف من المؤلفات الثمينة .

ولم تكن هذه الجهود مقصورة على مدينة القاهرة وحدها . بل اشتهرت إلى جانبها مدن أخرى كثيرة كالاسكندرية وأسيوط وقوص ودمياط ومنفلوط وبوتيج واخميم وأسوان وبلبيس ، هذه فضلا عن المدن الشامية والحلبية والحجازية .

وبلغ عدد مدارس القاهرة نحو خمسين ، فوق ما أنشأه الأيوبيون والفاطميون من قبل . ولا يزال كثير منها ماثلا للعيان فى القاهرة حتى اليوم .

وفى مقدمة هذه المعاهد التعليمية مستشفى قلاوون . بناه عام ٦٨٢ هـ . وكان عبارة عن مدرسة للطب كبيرة . به قسم للحميات ، وقسم للرمد ، وقسم للجراحة ، وقسم للأمراض النسوية ، وغير ذلك . وجهز بمن يهيمن عليه من الأطباء والموظفين والممرضين والصيدلانيين . كما زود بأدوات العلاج والصيدليات . وأعدت به أسرة للمرضى ، وقسم للعلاج الخارجي وكل ذلك بالمجان . وهيئت به قاعة محاضرات تلقى بها دروس الطب ، كما زود بخزانة كتب جليلة القدر .

هذه العوامل جميعها من شأنها أن توقظ الهمة وتشحذ العزيمة ، وتهيىء السبيل إلى الاشتغال الجدى بالعلم . وقد انتهز العلماء هذه الفرصة النادرة ، وتلك الموارد الشهية التى أتيحت لهم ، فنهلوا منها وعلوا . وكان لهم مما أصاب العرب والمسلمين فى تراثهم الفكرى ، ببغداد وغيرها خير حافز على النهوض بتدوين العلوم تدويناً جديداً ، وبالإضافة إليه كلما وجدوا مزيداً ، حتى يعوضوا اللغة والدين شيئاً مما فقداه فى محنهما ، وحتى يبرئوا الذمة أمام الله والتاريخ ، ويبرهنوا أنهم حملوا العبء بقلب ثابت ونفس راضية

وقد كان لهذه الحركة العلمية مظاهر متعددة ، أهمها مظهران هما : الحركة التعليمية ، والحركة التأليفية .

أما الحركة التعليمية فقد انتعشت انتعاشاً محموداً . وكان بالبلاد نوعان من التعليم هما : التعليم العسكرى ، والتعليم الشعبى .

أما العسكرى فقد كان مقصوراً على طائفة المماليك ، محظوراً على أفراد الشعب . وهذه إحدى نقائصه فى نظر المؤرخ الوطنى .

وكانت طباق القلعة المقر الرسمى لجنود الدولة منذ عصر قلاوون يجلبون إليها من الأسواق صغاراً ، ويقسمون فرقاً حسب أجناسهم ويقيم فى كل طبقة جنس ، يشرف عليه عدد من الزمامين «الأغوات» ويقوم هؤلاء الصغار بتمرينات رياضية سهلة مناسبة ويعلمون الكتابة والقراءة ، ويلقنون آيات من الذكر الحكيم ، ويعودون الصلاة وبعض الفروض الدينية . ويحفظون شيئاً من الأدعية ، وتحبب إليهم الأخلاق الفاضلة والدفاع عن الدين والجهاد فى سبيل الله . ثم إذا بلغوا الحلم يعلمون تمرينات رياضية أشد قسوة ، ويمرنون على السباحة واستعمال السيف والرمح ، وقذف الأطواق وركوب الخيل والمبارزة ورمى النشاب ولعب الكرة . وفى هذه المرحلة تنضج مواهب المملوك وتبرز خصائصه وتبدو مهارته وشجاعته . فإذا عرف فضله وشهد بلاؤه ، صار فى عداد المحاربين ثم قد يدفع به حظه إلى العتق ثم الترقى فى سلك الإمارة . وقد تسوق إليه المقادير فى أعقاب ذلك سلطنة البلاد .

وقد عنى السلاطين عناية بالغة بتنشئة مماليكهم تنشئة عسكرية صالحة ، كما عنوا بطعامهم وشرابهم وصحتهم ، فتخرجوا — كما قال المقريزى — « سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل » . وبتوالى الأيام تراخى السلاطين فى بذل هذه العناية فاضطرب نظامهم شيئاً فشيئاً ، وكان لذلك أثره السيىء فى أخلاقهم ، فانقسموا ، شيعاً ، وتدخلوا فى سياسة الدولة فأفسدوها ، وشغلوها بأطماعهم غير المشروعة وقعدوا عن الجهاد الصادق ، حتى صاروا كما قال المقريزى «أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفساً ، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضاً عن الدين ، ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب » .

أما التعليم الشعبى فقد كان مقره المساجد وما شابهها مما أنشأه السلاطين والأمراء ومن لف لفهم — كما ذكرنا — ومهما قيل فى سبب إنشائها ، فهى بلا شك كانت الدعامة الأولى من دعائم هذا التعليم . وقد كانت بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن ، بها من الجامعات الحديثة خصائصها ومميزاتها ، وإن افترقت عنها فى الشكل والعرض . بل لعل التعليم بها كان ميسراً أكثر مما هو ميسر اليوم . وكان الطالب بها حراً يندمج فى عداد من يشاء من الطلاب ويقعد أمام من يشاء من الأساتذة . ويضع جدول حصصه بنفسه ، ويطوف على كل مسجد إذا شاء ليقتطف منه أشهى ثمراته . ولا يتحمل فى سبيل ذلك شيئاً من نفقات التعليم ، بل بالعكس كان يجد البر والمعونة من كثير من أهل الفضل . فإذا أتم إحدى مراحل تعليمه بقراءة كتاب فى مادة ، أو بحفظ طائفة من الأحاديث أو نحو ذلك ، منحه شيخه إجازة يشهد له فيها بتمام هذه المرحلة .

وكان السلاطين يعنون عناية دقيقة باختيار الشيوخ المدرسين فى مدارسهم ، ينتخبونهم من بين الأفذاذ المشهود لهم بالعلم والفضل والذين لا ينون يجعلون العلم ونشره غايتهم الكبرى . وكان بعض هؤلاء الشيوخ يستمر فى مدرسته طويلا ، ويلازمها ، حتى لنستطيع القول — جملة — إن كل مدرسة كان بها منهم هيئة تدريس خاصة بها . لكل مادة من المواد المقررة بها أستاذ . ونذكر على سبيل المثال شيوخ الجامع المؤيدى وهم : شهاب الدين بن حجر العسقلانى لفقه الشافعية . ويحيى بن محمد بن أحمد البجانى المغربى

لفقه المالكية . وعز الدين عبد العزيز بن على بن الفخر البغدادى لفقه الحنابلة . وبدر الدين محمود الميتنابى للحديث . وشمس الدين محمد بن يحيى للقراءات . وشمس الدين محمد بن الديرى لفقه الحنفية وشيخ للصوفية . وهكذا .

أما مواد التعليم فقد كان طبيعياً أن تكون العلوم الدينية فى مقدمتها ، بدافع من رد الفعل الذى أحدثته حوادث اغتيال العلماء ومؤلفاتهم فى بغداد وسواها من عواصم المسلمين . وبدافع ما أشرنا إليه من أن البيئة المصرية تحولت إلى حد ما بيئة دينية ألقيت عليها تبعات الذود عن الدين وعلومه وأهله . ويليها علوم اللغة للحاجة الماسة إليها فى درس العلوم الدينية وضبط شئون الدولة . ويليها غيرها من المواد لأنها تكمل المتعلم وتؤهله لتركيز علمه . وكانت مواد التعليم هى الفقه بمذاهبه الأربعة ، وأصول الفقه ، والحديث والتفسير والقراءات والوعظ والكلام والتصوف ثم دروس النحو والصرف والأدب ، ثم الطب والفلك والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة .

وقبل أن يدرس الطالب هذه الدراسة ، يمر بأحد المكاتب المنشأة بجوار المساجد ، ليحفظ به القرآن الكريم ويتعلم مبادىء القراءة والكتابة .

ولم يكن لدور التعليم مناهج خاصة فى موادها المقررة . وأغلب الظن أن منهج المادة كان رهناً برغبة أستاذها . فهو وحده يختار الكتاب الذى يقرؤه فيها لطلابه . ومهما يكن من شيء فقد سمدت كتب خاصة باتخاذها مناهج لموادها المقررة . نعرف ذلك إذا اطلعنا على تراجم الأعلام من علماء العصر ؛ لذلك نستطيع القول إن من بين الكتب التى اتجهت العناية إليها لدراستها ما يلى : التنبيه . المنهاج الأصلى للنووى . الشاطبيتان فى القراءات . العمدة للحافظ النسفى فى الأصول . والكافية لابن الحاجب فى العربية . ومختصر القدورى فى الفقه . وجمع الجوامع . والأربعون حديثاً النووية وتلخيص المفتاح فى البلاغة ، والكنز فى فقه الأحناف . والمنار فى الأصول . وألفية ابن مالك فى النحو . والملحة . والمختار والمنظومة كلاهما للنسفى فى الفقه . ونظم قواعد الإعراب لابن الهائم . وإيساغوجى فى المنطق . وكتب الحديث الستة .

وقد امتلأت المساجد بطلاب العلم على اختلاف مذاهبهم ، واختلاف بلادهم ، ممن وفدوا على مصر يستظلون بظلها ويستمدون رفدها وينهلون من مواردها . حتى ضاق بهم بعضها على رحبه ، وكان منهم «المنتسبون» وهم الداعون الذين قيدت أسماؤهم لينالوا شيئاً من الأوقاف بصفة مستمرة . أما غيرهم فأخلاط شتى من محبى العلم من الشعب

وأهم ما يوجه إلى هذا الضرب التعليمى من النقد — إذا نظرنا إليه نظرة حديثة — أنه لم يكن سياسة للدولة مرسومة ، بل كان نتيجة جهود فردية ، وأنه لم يؤد إلى الشعب باعتباره حقاً من حقوقه ، بل باعتباره منحة له وتفضلا عليه . وأن الأساتذة عنوا بنشر العلم فحسب ، ولم يتخذوه وسيلة إلى إيقاظ الشعب وتنبيهه إلى حقوقه وواجباته .

غير أنه — بلا شك — نظام قد أنجب . وأغلب نجبائه من رجال الدين . وبلغ بعضهم مرتبة الأئمة المجتهدين . وقاموا بحركة تأليفية مباركة ، هى حلقة فريدة من حلقات العلوم والآداب كان لا بد لحياة العلم والأدب من وجودها .

أما هذه الحركة التأليفية فكانت المظهر الخالد للحركة العلمية . وشجعها السلاطين ودعوا العلماء أحياناً إلى التأليف برسم الخزانات الشريفة . فمنهم المؤرخ أبو بكر بن أيبك ، ألف كتابه «كنز الدرر» للناصر بن قلاوون . والطبيب محمد القوصوى ألف للغورى كتاب «كمال الفرحة» فى الطب . وعماد الدين موسى بن محمد اليوسفى المصرى ألف كتابه «كشف الكروب فى معرفة الحروب» للسلطان جقمق .

على أن التأليف لم يكن وقفاً على تشجيع السلاطين أو سواهم ، بل كان غاية من غايات العلماء . لذلك نشطوا فى ميدانه نشاطاً هو مثار الدهشة والعجب ، لبلوغه حداً من الإعجاز . وتعددت مؤلفات بعضهم حتى عدت بالمئات ، وفى فنون شتى . واتسمت أحياناً حتى صارت موسوعات جامعة امتدت فيها آفاق العلم . وعنوا بعلوم الدين أولا ، ثم التاريخ وفنون العربية ، ثم غيرها . وحظى تاريخ الأعلام والخطط بنصيب كبير من العناية . وهكذا ترى أن مؤلفاتهم لا غنية عنها للفقيه والمؤرخ واللغوى والأديب والمحدث والنحوى والبلاغى وغيرهم . وبعضها يعد فريداً فى بابه منقطع النظير .

وأهم ما يوجهه الناقد إليها أن بعضها رسائل صغيرة ، وأن منها ما يشوبه الجمع والنقل ويندر فيه الابتكار . وأن منها المتون وشروحها ومختصرات شروحها . غير أن هذه النقدات يسهل الرد عليها وتعليلها فسياق العصر كان يدعو إليها إسراعاً إلى تدوين المحفوظ ومجلة إلى تسجيله حذراً من أن تعبث به يد الزمان

ثم هيهات أن تقلل هذه النقدات من خطر تلك المؤلفات . وإلا . فأين فيما ألفه السابقون كتاب كالإتقان للسيوطي ، أو شرح البخاري ومقدمته لابن حجر ، أو الفتاوى لابن تيمية ، أو المدارج لابن القيم أو المغني لابن هشام ، أو المجموع للنووي ، أو تكملة للتقي السبكي ، أو الخطط للمقريزي . بل أين مثل ما كتبه مؤرخ مصر في تاريخها وتاريخ أعلامها من أمثال الإدفوي وابن خلكان والتاج السبكي وصاحب الدرر ، وأبي المحاسن والصفدي ، وابن إياس والسخاوي . بل أين الموسمات التي تشابه موسمات القلقشندي والنوري وابن منظور وابن فضل الله ؟

وبعد فهذا غيض من فيض ، وقل من كثر ، ولمحة خاطفة من شمس ضاحية ، وقبس عاجل من سراج وهاج .

(حلوان) **محمود رزق سليم**

سؤال ينتظر الجواب

لمهندس كبير

تأتينا مياه النيل سنة بعد أخرى بطريقة منتظمة متكررة ، إلا أن مقدار ما يصلنا منها يختلف في الأوقات المختلفة من السنة نفسها كما يختلف من سنة لأخرى . ولسنا هنا بصدد البحث في أسباب هذه الاختلافات الوسمية أو السنوية أو معرفة النتائج التي تترتب عليها لأن هذا معناه دراسة نظم الري بالقطر المصري .

ولكننا بصدد أن نلفت النظر إلى ناحية واحدة من هذا الموضوع وهي المماطلة في تنفيذ المشروع الذي يدفع خطر الفيضانات العالية .

إن الخسارة التي نتكبدها من جراء هذه الفيضانات العالية الخطرة ليست بالقدر اليسير الذي يمكن إهماله أو غض النظر عنه لأنها ليست قاصرة على ما يصيب هؤلاء الذين يطغى عليهم الفيضان فيكتسح زراعاتهم ويحرمهم أرزاقهم ويعدمهم أقواتهم ، بل إن الحكومة تخسر ما تحصله من أموال هذه الجهات المنكوبة كما تتحمل مصروفات أخرى كبيرة فيما تتخذه من إجراءات لدرء خطر هذه الفيضانات وهذا بجانب ما يستحوذ على الأمة من قلق واضطراب

إن مشروع اتقاء الفيضانات العالية تدرسه الجهات المختصة ؛ وقد حصل الدارسون على معلومات وأبحاث كثيرة بدىء بدرسها ؛ ولكننا نتساءل ألم تكن هذه المدة كافية للوصول إلى نتيجة يصح أن تكون أساساً لقرار ينفذ ؟

إن هذه الفيضانات العالية الخطرة ليست خاصة بنيلنا وحده ، لأن هناك كثيراً من الأنهر في البلدان الراقية تفيض على الأودية التي تجري فيها وقد كانت فيما مضى سبباً في نكبات ساحقة وكوارث ماحقة ، ولكنها عولجت على النحو الذي منع حدوثها أو حد من شدتها . وليس من الميسور أن نذكر هذه الطرق الفنية المختلفة التي تكيفت تبعاً لظروف كل حالة منها على حدة ، ولكننا نعلم أن وجهة النظر الفنية في مصر تتجه إلى تصريف مياه الفيضان في موقع منخفض قريب من مجرى النهر يتسع لاستيعاب هذه المقادير الكبيرة من مياه الفيضان ؛ على أن تحفر قناة لتصل النهر بهذا المنخفض ، فكيف لا يقرر إلى الآن أين يكون هذا المنخفض وصيانة القناة وغير ذلك وما هي النفقات التي يطلبها تنفيذ المشروع ؟

إننا لا نجد سبباً يبرر هذا التأخير غير ما سمعناه من أن ملفات هذا الموضوع تظهر وقت وقوع الكارثة حتى إذا ما مرت اختفت هذه الملفات لتظهر مرة أخرى عند حدوث الكارثة التالية . إن في الولايات المتحدة حالة في وادي التيس تشبه حالتنا ، قد كانت الأمطار الغزيرة والسيول المدمرة تكتسح الوادي من وقت لآخر فتهلك الزرع وتجرف معها تربة الأرض نفسها فتتركها جرداء لا تصلح للزراعة إلا بعد مشقة ، وتبع ذلك حتماً أن عاش سكان هذا الوادي في ذعر مستمر يحاربون الطبيعة ولا معين ، ويتلقون النكبات ولا منقذ ، إلى أن قام أولو الأمر فنفذوا المشروع المناسب لمواجهة هذه الحالة فحفروا القنوات لحصر جريان الماء حيث يريدون ، وأقاموا الخزانات والسدود ، وأنشأوا الجسور فخلقوا من الذعر طمأنينة ، ومن البؤس والفقر سعادة وثراء ، وأصبحت هذه الجهات جنات خضراء يعيش أهلها الآن في نعيم مستديم . وزيادة على ذلك فقد أمكن توليد القوة المحركة من مساقط المياه فيها فزادها رفاهية وخيراً عميما . أما نحن فسوف يأتينا الفيضان الخطر التالي ونحن كما نجدنا الآن ! فهل هذا يجوز ؟

إذا كان هناك من الأسباب ما يبرر هذا الإبطاء أو التأجيل فلينبئنا به أولو الأمر إذا كانت الصعوبة مالية أو فنية حتى لا تصبح عرضة للوم أو التنديد .

إننا نريد أن نثبت للشعب أن الرجال الذين يشرفون على شئونه ساهرون على مصلحته يعملون على إصلاح هذه الشئون . وهذه واحدة من عدة مسائل أخرى أرى ضرورة الكتابة عنها إذا ما أردنا الخير لهذه البلاد .

« مهندس »

٢ ـ فن المسرح (*)

(تحية للأستاذ الفاضل زكى طليمات)

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

المسرح وقيمته التصويرية:

ماذا يصور المسرح ؟ إنه يصور ماأودعه المؤلف فى مسرحيته من أفكار وتجارب . ولما كان لهذا الفن — كما لكل فن — أسلوب خاص فى التصوير كان من اللازم أن تكون تلك الأفكار والتجارب مما يمكن تصويره بهذا الأسلوب دون سواه . والمفروض أن طريقة التأليف المسرحى تجرى — فينا — على النسق الآتى : يلتقط خيال المؤلف بعض احتمالات الحياة ويكون منها مجموعة مستقلة من الحوادث المتصلة تستحيل فى ذهنه إلى حوادث مرتبة ترتيباً معيناً (Plot) وهذه يعبر عنها بواسطة شخصيات (Characters) وهؤلاء يعبر عنهم شعورهم وتفكيرهم عن طريق ما يلفظون به من قول (diction) .

فإذا جاز لنا أن نقارن بين الفنون عامة من حيث أساليب التصوير فماذا يكون شأن المسرح ؟ .

المشاهد أن من الفنون ما يجنح للخيال المبهم ومنها ما يهبط إلى الواقع السطحى، بينما المسرح — فيما يبدو — يشكل التجارب والأفكار المجردة فى قوالب ملموسة دون أن يقلل من روعة ما كانت عليه « خيالا » أو يزرى بما صارت إليه « واقعاً » . يقول (آبر كرمبى) وهو يشرح رأى أرسطو بهذا الصدد ما مؤداه : « إن الفن المسرحى إنما وجد لكى يعطى صورة ومادة لضرب خاص من التنبه الخيالى . ووجود الفن يستلزم وجود التنبه الخيالى ... ومن الممكن أن نصور الحياة كما هى تماماً ولكن الأمر الذى يحرك الشعور هوأن نتصور الحياة كما يمكن أن تكون وهنا يصبح الخيال قوة قادرة على الإيحاء ... وربما كان عمل الخيال لا يعدو مجرد تقطير الأحداث الواقعية باستبعاد جميع نواحيها السخيفة ... » .

فهل لنا أن نتخذ من هذه الواقعية الفنية مبرراً قوياً لتفضيل الفن المسرحى على غيره ؟ المصطلح عليه أنه من الصعب — إن لم يكن من العبث — أن نفاضل بين الفنون بإخضاعها كلها لمقاييس جمالية واحدة بل ينبغى أن نراعى « الخامة » التى يستعملها كل فن على حدة . ومع هذا فقد نستطيع المقارنة بينها بالمقارنة بين هذه الخامات المختلفة وحينئذ يتبين لنا بجلاء أن خامة المسرح أغناها عنصراً وأقواها قدرة على التصوير الحى . فالمسرح بعناصره الثلاثة — أى التأليف والإخراج والتمثيل وأدواتها ووسائلها الخاصة المتآلفة — يمتاز على الفنون التى تصور « الجسم » — كالنحت — بالحياة والحركة ... ويمتاز على الفنون التى تصور « الشكل » — كالتصوير اليدوى والآلى — بأبعاده الثلاثة ... ويمتاز على الفنون التى تصور « الحركة » — كالرقص والبانتوميم والميم (١) — بالإفصاح الذى لا يغنى عنه الإيماء ... ويمتاز على الفنون التى تصور « الفعل» — كالشعر والقصة — بالتجسيد والتحديد ... أو أكثر من هذا فالمسرح يمتاز على الفنون جميعاً فى تصوير « اللحظات الفنية » التى هى مناط الاهتمام من كل فن . بيان ذلك أننا إذا أردنا — فرضاً — تصوير حقيقة كبرى كالموت — وليكن موت أحد الفنانين مثلا — بشتى الطرق الفنية فإن الفنون المكانية — أى التى تشغل من الوجود مكاناً ما كالنحت — ستتمثل اللحظة الفنية فى غمضة عينية ... والفنون الزمانية — أى التى تشغل من الدهر زماناً ما كالموسيقى — ستتمثل اللحظة الفنية فى صوته وهو يتهدج ويخفت قبيل موته .. أو نحو ذلك ... بينما المسرح سيتمثل اللحظة الفنية فى كل ما بينه وبين الحياة من صلة : فمشهد يظهر شعور تلاميذه وعارفيه بالألم . . . ومشهد يظهر احتفال الناس بآثاره . . . ومشهد يظهر ما ألم به من ظلم فى حياته . ومشهد يظهر ما صار إليه من مجد . وهكذا .

بمثل هذه المزايا التى لا تتوفر لفن آخر استأثر التصوير المسرحى دون غيره أو أكثر من غيره من الفنون بتصوير الطبيعة البشرية والدوافع الإنسانية على مدى العصور . فن تصوير للنزعات المنيفة قديماً إلى تصوير للمثاليات فى عهود الرومانتيكية إلى

(*) راجع العدد ٧٥٤

(١) البانتوميم والميم من فنون الرومان فى العصور القديمة يقومان على التمثيل الراقص بغير كلام إطلاقاً

تصور للواقعية المجردة من الرياء أو العرف الاجتماعي ثم الكشف عن مكنونات العقل الباطن في العصر الحديث .

وبمثل هذه المزايا كان للتصوير المسرحي دون غيره أو أكثر من غيره من الفنون فضل احتضان الآراء والنظريات الفلسفية والنقدية على مدى العصور . وليس أدل على ذلك من أن المسرح أمكنه حتى في العصور الاستبدادية أن يردد — وحده — ما يشاء من الآراء بفضل قدرته البارعة على تصوير ما يشاء من الأجواء . ولنضرب مثالا واحداً لذلك بعهد الديكتاتورية الرومانية القديمة فقد استطاع بعض المسرحيين وقتذاك أن يصوروا كثيراً من الأجواء الحرة الطليقة — نقلا عن اليونان — بينما تشكلت سائر الفنون الأخرى قسراً بما يوائم سياسة تلك الديكتاتورية البغيضة .

كذلك انفرد التصوير المسرحي دون غيره أو أكثر من غيره من الفنون بالتوغل في أعماق النفس البشرية وإظهار دفائنها التي لا نكاد نصدق بها أحياناً . من ذلك مثلا « عاطفة الكراهية » التي يقال إنها تتولد في الخفاء بين الأب وابنه تمشياً مع قانون البقاء . فهذه العاطفة لم يكتشف مجرد احتمال وجودها إلا منذ بدأ فرويد وأتباعه في القرن الماضي يهتدون إليها .. ومع هذا فالمسرح يصورها منذ مئات السنين ! . فبالرغم مما يبدو في المسرحيات — نقلا عن مظاهر الحياة — من توقير الأبناء لآبائهم وعطف الآباء على أبنائهم (أو ما يسمونه عقدة إلكترا وعقدة أوديب نسبة إلى تعلق الفتاة إلكترا بأبيها القائد أجاممنون وتعلق الملك أوديب بابنتيه أنتيجونا وإسمينا في الأساطير والروايات الإغريقية) إلا أننا نجد بالاستقراء أن للآباء أوفى نصيب من السخرية والتحقير في الروايات الهزلية كما نجد أن معظم الروايات — هزلية وغير هزلية — تدور حول شاب يحب فتاة ويقوم أبوها أو أبوه بدور (العاذل) أو ما شاكل ذلك . وربما لا نجد تفسيراً لهذا كله إلا عاطفة الكراهية التي أسلفنا الإشارة إليها .

ولكن ... قد يقال إن التصوير المسرحي مهما بلغت قيمته في العصور السالفة ذات الطابع الهادئ فقد أصبح في العصر الحديث ذي الأساليب الميكانيكية أقل قيمة من بعض الفنون الأخرى — والسينما على الأخص — لأسباب كثيرة منها : أنه يصور الحوادث تصويراً بطيئاً ، ويحصرها في زمان معين ومكان معين ، ويجزئ الفكرة الواحدة إلى فصول متقطعة . . ويصطنع التقديم والتأخير في ترتيب حوادثها والتضخيم في تعبيره عنها لفظاً وحركة . وهذا في مجموعه لا يطابق الواقع ولا المعقول بل لعله يتنافى معهما ! بينما السينما تعرض للناس ألواناً مجهولة لهم وتروح عن نفوسهم وتؤثر فيهم بواقعيتها ومنطقها المعقول .. الخ .

والحق أن الأمر — من الناحية الفنية على الأقل — ليس كذلك[1] .

فبطء التصوير ميزة للمسرح لأنه يهيء للمشاهد فرصة الانفعال في كل مشهد بينما السينما لتتابع اللقطات — التي لا تعدو أن تكون مشاهد — تتابعاً فظيع السرعة لا تتيح حتى مهلة التأثر .

وأيضاً حصر القصة في زمان معين ومكان معين ميزة للمسرح . إذ يضطر المؤلف إلى قصرها على أعظم حوادثها دلالة وإثارة ومغزى وبذلك تكون مركزة وخالصة من الشوائب فتزداد روعتها .

وكذلك تجزئة الفكرة الواحدة إلى فصول متقطعة ميزة للمسرح . فمن المعلوم أن المسرحية تتطور دائماً في مصطرع فكري وعاطفي وفني هو « الحبكة » لذلك فإن تجزئتها إلى فصول تتيح للجمهور شيئاً من الراحة واستعادة النشاط وتتيح للمؤلف — وهذا هو المهم فنياً — الانتقال من تيار إلى آخر واستئناف التصوير كلما وصل تطور الحوادث وتعقدها إلى ما يسميه الفنيون « الطريق المسدود » بعكس السينما التي تتخطى هذه الطرق المسدودة بالانتقالات المفاجئة في قفزات آلية لا جمال فيها .

وأما ترتيب الحوادث ترتيباً يغاير الواقع بتقديم بعضها وتأخير البعض الآخر فميزة من ميزات المسرح الهامة لأنه لا يغاير الواقع على هذا النحو إلا تنظيماً لحوادثه التي قد تقع كيفما اتفق وانتشالا لها من الفوضى والتماساً لتعليل حدوثها منطقياً وتهيئة لما يتوخى في العمل الفني من انسجام وتناسق .

وكذا التضخيم في الإلقاء والأداء التمثيلي من ميزات المسرح التي يعتد بها لأن في تضخيم الألفاظ والحركات — في الحدود الفنية — إجلالا لما تدل عليه من مدلولات وإظهاراً لملامح الشخصيات ومواطن الانفعالات . تماماً كما ينحت النحات تمثاله

(١) عرض الأستاذ حسن محمود لهذا الموضوع في مجلة الكاتب المصري عدد ديسمبر الماضي من ناحية أخرى .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٩٦٤ — إن الله جميل يحب الجمال

في « تيسير الوصول » وقد جمع « الأصول الستة » :

لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة فقال إن الله جميل يحب الجمال . الكبرُ بطرُ الحق[1] وغمصُ الناس[2] .

* * *

إن رجلا جميلا أتى النبي فقال : إني أحب الجمال ، وقد أعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك نعل ، أفمن الكبر ذلك يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولكن الكبر من بطر الحق ، وغمص الناس .

(١) هو أن يتجبر عنــد الحق فلا يراه حقاً . وقيل هو أن يتكبر عند الحق فلا يقبله .

(٢) غمص الناس أي احتقرهم فلم يرهم شيئاً .

* * *

عن أبي قتادة قال : قلت يارسول الله ، إن لي جمة أفأرجِّلها[1] ؟ قال : نعم ، وأكرمها . فكان أبو قتادة ربما دهنها باليوم مرتين من أجل قوله . نعم وأكرمها .

* * *

أتى رجل النبي ثائر[2] الراس واللحية فأشار إليه كأنه يأمره بإصلاح شعره . ففعل ثم رجع . فقال : أليس هـذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان …

* * *

عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبي وعليّ ثوب دون . فقال : ألك مال ؟ قلت : نعم . قال : من أي المال ؟ قلت : من كل

(١) « الترجيل » تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه .

(٢) « ثائر الرأس » منتشر شعر الرأس قائمه .

من مادة نخمة وكما يصبغ الرسام لوحاته بأصباغ نخمة وهكذا .

بل إن هذا لا يعدو أن يكون مقارباً لما نفعله في حياتنا العادية حين نقص نبأ نظنـه هاماً فنتكئ على بعض الألفاظ ونتحرك حركات خاصة بقصد التفهيم والتأثير . المسرح على هذا النحو يعمل ما وسعه على التفهيم والتأثير لذلك يضفي بأساليبه جلالا على الحوادث يجعلها ذات وزن .

وقل مثل ذلك عما يأخذونه على الفن المسرحي من إيهام أو تخييل أو مبالغة لأن العبرة بمدى إحساسنا بالصورة النهائية التي يصورها لا سيما ونحن نعلم أن ما يجري فوق المسرح إن هو إلا « تمثيل » بحت وليس واقعاً . فقد نشاهد في نصف ساعة مشهداً يصور قروناً بأكملها . . وقد نسمع تهامس ممثلين ويجانبها مباشرة ثالث لها (يمثل) أنه لا يسمعهما .. إلى غير ذلك دون أن نصدم بمخالفة الواقع أو دون أن نحس من هذه المخالفة بنفور أو شذوذ طالما أننا نعلم أن للمسرح « اصطلاحات » لا تحول دون التأثر النهائي المطلوب .

ولهذا يجوز أن نشاهد في بعض الروايات سمات يكاد يستحيل وجودها بين البشر (كما في : روميو وجوليت) أو حلول للمشكلات غير معهودة الحدوث في دنيانا (كما في : كريتون The Admirable Brichton) ولكننا ننتهي من المشاهدة متأثرين أعظم التأثر سواء بتصوير (شيكسبير) في الرواية الأولى لقوة الحب الطاهر أو بتصوير (باري J. M. Barrie) في الرواية الثانية لمغزاها الرائع : « الظروف تغير الأحوال Circumstances Alte Cases »

* * *

وأياما كان الأمر فإن الدفاع عن فن ما لا يستلزم الزراية على فن آخر . ويكفينا من الفنون جميعاً أن تنهض بما تمارسه في حدود قدرتها على هذه الممارسة . غير أن هـذا لا يبرر الأخذ بظواهر الأمور فنتغنى بالسينما دون اعتبارات فنية ونجاري العامة وأوساط الناس في نظرتهم المتواضعة إلى المسرح العظيم …

« للبحث بقية » عبد الفتاح البارودي

المال قد أعطانى الله . قال : فإذا أتاك الله تعالى مالا فلير أثر نعمته عليك وكرامته .

٩٦٥ — لما تكلم فوقنا القدر

ابن هانىء الأندلسى :

مما دهانا أن حاضرنا	أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا	فأكلهن العين والنظر
لو كان للألباب ممتحن	ما عدّ منها السمع والبصر
أىُّ الحياة ألذ عيشتها	من بعد علمى أننا بشر ؟
خرست لعمر الله ألسننا	لما تكلم فوقنا القدر

٩٦٦ — يا أبا صالح احفظها

فى « تاريخ الولاة » للكندى : لما ولى « مصر » أبو صالح يحيى بن داود من قبل المهدى ، وكان من أشد الناس سلطانا ، وأعظمهم هيبة — منع من غلَق الأبواب بالليل ، ومنع أهل الحوانيت من غلقها حتى حطوا عليها شرائج(١) القصب تمنع الكلاب منها . ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها . وقال : من ضاع له شيء فعلى أداؤه . فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول : يا أبا صالح ، احفظها . فكانت الأمور على هذه مدة ولايته .

فى « تاريخ الولاة » للكندى : ولى مصر عيسى بن منصور سنة (٢١٦) . فانتقضت أسفل الأرض كلها عربها وقبطها ، وأخرجوا العمال ، وخالفوا الطاعة ، وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم . وقدم المأمون مصر سنة (٢١٧) فسخط على عيسى بن منصور ، وأمر بحل لوائه وبلباس البياض ، وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك : حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد !

٩٦٧ — إنه لاتصاله حقا فى أموالنا لا فى أعراض الناس وأموالهم

فى « مواسم الأدب » :

قال : الربيع للمنصور : إن لفلان حقاً فإن رأيت أن تقضيه ، وتوليه ناحية فقال يا ربيع : إن لاتصاله حقاً فى أموالنا لا فى أعراض « الناس » وأموالهم . إنا لا نولى للحرمة والرعاية بل للاستحقاق والكفاية . ولا نؤثر ذا النسب والقرابة على ذى الدّراية . فمن كان منكم كما وصفنا شاركناه فى أعمالنا . ومن كان عطلا لم يكن لنا عذر عند الناس فى توليتنا إياه ، وكان العذر فى تركنا له وفى خاص أموالنا ما يسعه .

(١) الشريجة : باب من قصب يعمل للدكاكين .

٩٦٨ — أدبنا الله قبل معرفتنا بحكمة أرسطاطاليس

قال أرسطو للاسكندر : ليكن ملكك فى البلاد بالتودد إلى أهلها لا كقهر الراعى غنمه بالعصا ، فإنك فى طاعة المودة أحمد بدءاً وعاقبة من طاعة القهر والاستطالة .

فحدث بهذا القول المأمون فقال : لقد حث على التودد فأحسن ، وقد أدبنا الله قبل معرفتنا بحكمة أرسطاطاليس : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

٩٦٩ — قصيدة مبيدة . . .

فى « نفح الطيب » :

لما استوزر باديس صاحب غرناطة اليهودى الشهير بابن نقولة ، وأعضل داؤه المسلمين قال زاهد البيرة وغرناطة أبو إسحاق الألبيرى قصيدته النونية المشهورة التى منها فى إغراء صنهاجة باليهود :

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذى مقة مشفق	صحيح النصيحة دنيا ودين
لقد زل سيدكم زلة	أقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً	ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهودُ به وانتموا	وسادوا وتاهوا على المسلمين

فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة . وفيهم الوزير المذكور . وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو الكاتب .



الزواج ســـــنة ١٩٤٨

لعل هذه البدعة التي أنا محدثك عنها قد سلف بها الزمن ، ولكني لم أهتد إليها إلا أمس وأنا جالس في ركن من أركان مقهى هادىء جميل أحسب أن أصحابه أعدوه لمن ينشد الهدوء ، وإن كان يقصده أكثر من يقصدونه طلباً لهذا الهدوء ولشيء آخر أظنه عندهم أحلى من الهدوء وأمتع . .

جلست وحدي منكدر الخاطر بما ينعكس على ذهني من هذه الوحدة ... ودرت ببصري وفي عيني شيء من أثرها ، أدرأ السأم عن قلبي ، وأنفض الخواطر الكابية عن ذهني ، فانقلب إليّ البصر محزوناً ؛ فما يخلو ركن من رفقة ، وقلما رأيت شاباً إلا ومعه صاحبته أو زوجه ، ولم يكن هناك من يجلس مثلي وحيداً إلا اثنان أو ثلاثة لعلهم كانوا ينتظرون من يؤنس هذه الوحدة ...

البهو هادىء على كظته ، خال مما يحدث الضجيج والصخب من أدوات اللعب ، والمقاعد منسقة تنسيقاً جميلا ، والندل يجيئون ويذهبون بما يشرب أو يؤكل في خفة وفي هيئة تغري بطلب المزيد ، والضحى دافىء ضاح ، والوجوه كلها مستبشرة مطمئنة ، وأنغام الموسيقى يصغى لها من يصغى ويصفق لها من يصفق ويلهو عنها بالحديث العذب من يلهو ، وأنا وحدي على حالي من السأم والضيق وانكدار الخاطر .

وجاء رفقة من الشباب فتحلقوا حول منضدة غير بعيد مني ، وأخذوا يتحدثون ويضحكون ، وما فيهم فيما أرى من هو دون الثلاثين ولا من يزيد على الأربعين ؛ وكان بينهم فتى يبدو لأول وهلة أنه روح الحلقة ، في وجهه وإشاراته وحركاته ماينطق بخفة روحه ، وفي ضحك رفاقه من كل كلمة يقولها مايدل على أنه فارسهم المعلم ..

وتشقق الحديث بينهم في غير نظام حتى مال الكلام إلى الزواج فسأل واحد منهم : لم كانوا جميعاً أعزاب ؟ وإلام يظلون على هذه الحال ؟ ورد أحدهم قائلا في لهجة المتحمس : « ينحصر ذلك في أمر واحد هو عندي علة العلل ، فإن بعض أسرنا وبخاصة ما يسمونها الأسر الراقية وا أسفاه قد أخذت ببعض التقاليد الأوربية التي تنبو عن روحنا الشرقية ، فاندفع بناتنا إلى ما يعد في الغرب من مألوف الأمور ، وما يعد في الشرق مهما خادعنا أنفسنا من التدهور الخلقي والفوضى والأباحية ، ولما انطلقت الأوانس من بعض القيود أغراهن ذلك بما سمينه حرية فانزلق أكثرهن حتى وقفن على حافة الهاوية وسقط بعضهن فعلا ، وأعرض الشباب أو أقدموا ثم ما لبثوا أن طلقوا ... »

وضاق فارس الحلقة بهذا الجد فقال لصاحبه : « دعنا من هذه الفلسفة : المسألة أن الزواج الآن زواج منفعة أيها العبيط ؛ فأكثر الشباب يطلب الزوجة ومعها الدرجة ، والدرجات أيها العبيط لا يملكها إلا الحزب الحاكم ، وعلى ذلك فهذا يطلب عروساً وفدية إذا كان الوفد في الحكم ، وآخر يطلبها سعدية إذا كان السعديون هم الحاكمين ، ويحرص غير هذين وهو أمهر منهما أن يأتي بها وفدية الوالد سعدية الأم دستورية الخال كتلية الأخ ، وأمهر من هؤلاء من يأتي بها إنجليزية فتغني عن الجميع على قاعدة ألمانيا فوق الجميع ، ومن هذا صعب اختيار الزوجة ياعبيط »

وضحك الرفاق وقال أحدهم « مثال ذلك أن فلاناً يطلب يد ابنة فلان باشا ولكنه يشترط على أبيها الدرجة الثالثة » ... وضحك الفارس وقال : « قل لأبيها أنا أقبل بالرابعة » .

وعاد الفيلسوف يقول : « أفٍّ لمن يطلب المال والدرجات ! الجمال هو كل شيء » وقاطعه الفارس قائلا « والخلق يا حضرة الفيلسوف » وقال الفيلسوف « والخلق بالضرورة » فقال الفارس يقلد لهجته متهكما ، يظهر أنك تصنع العروسة على يدك : جمال وخلق ! وأين ذلك وقد وصفت العصر بما وصفت ؟ » .

والتفت الرفاق والتفتُّ إلى فتاة كالزهرة فتحها الربيع : فهي نضرة وفتنة وعطر وسحر وشعر ... وقد وضعت كتابها على المنضدة وأخرجت إبرتها وغزلها وأعملت أناملها ، دون أن تنظر إلى أحد ... وسكن الشبان لحظة كأن على رءوسهم الطير ثم تخافتوا بينهم ، وقال الفارس فيمايقرب الهمس : « أتزوج هذه ولو ذهبت درجتي ومالي ... بلا قيد ولا شرط » وقال الفيلسوف « أنا معك ! أرأيت كيف يعلو الجمال على المال ؟ ولكن ... يا خسارة ! تأتي هكذا وحدها إلى المقهى ... من يدري ؟ » وآمن الرفاق بالجمال وقالوا نقبلها ولو كان أبوها طريد الأحزاب كلها » إلا واحداً منهم لم يتكلم قبل أبداً ، كان صهيوني الملامح والنظرة فهز رأسه مفكراً وقال « كلا لست معكم والله لن أقبلها إلا ومعها الدرجة »

الخفيف

من التراب :

ماضي شهيد !

للأستاذ محي الدين صابر

هكذا دارت حواليه ولفته الحياةْ
فارتمى فى السفح ، فى عينيه وحى وصلاه
وعلى المنهل قد أنكره حتى الرعاه
هو حلم ظلَّ يساقط ليلاً فى ضحاهْ
ضلَّ فى أعماقه معناه وارتاب هُداه
وسوست أشواقُه من أفق ليس يراه
صاعدات الضمير فى دم الغيب مداه
دمعت جبهتُه آه وكم تبكى الجباه
قال ، والذُّلُّ على عطفيه يا مجد إلهْ
هكذا دارت حواليه ولفته الحياهْ

وتلوَّى فى طريق سارب بين الشِّعابْ
ذاهلاً يدفنُ فى عينيه كوناً من عذاب
مهجةً مجروحة الأقدار تاهت فى ضباب
نشرت من شعره الريح وجاشت فى الثياب
قدماهُ فوق ناب الصخر موتٌ فى شبابْ
وهوَ سهوانُ كما يطردُ معنًى فى كتاب
يتملى صوراً تغْبُرُ ما ضيه رطاب
قال فى قهقهة المجنون يا ذلَّ التراب
ورأى فى وهمه الواثب فى السفح ، سراب
فتلوَّى فى طريق سارب بين الشِّعاب

وتهاوى تحت سرح شائخ الجذْع عتيدْ
ظلُّهُ الرّاعش رحمانٌ على البيد طريد
شد من لحيته يرقُبُ طيفاً من بعيد
من بعيد بين جنبيه رمادٌ وحصيد
واستوى يعزف للقمة لحناً من جديد
جحظت عيناهُ هذا الناىُ صمتٌ وجليد
ذهب الوحىُ جميعاً من يديه والنشيدْ
مصه الجدبُ امتصاصاً فهو بيد فوق بيدْ
قال فى حشرجة المذبوح يا قبر شهيد
وتهاوى تحت سرح شائخ الجذع عتيد

ومشت قافلةٌ تصعد من خلف السنينْ
فى هواديها غناء وعلى الخلف أنين
هى من أين ؟ إلى أين ؟ أظنٌّ أم يقين
هى لا تعرفُ إلا أنها فى السائرين
عبرت مصرع إنسان على الذِّكرى ، دفين
كبرياءٌ ردَّها الفكرُ حطاماً من حنين
فهو رأسٌ يثبُ الموتُ عليه وجبين
قال حاديها : غريبٌ قد دعانا منذ حين
فدعوهُ إن فى الماضى حياة الخالدين
ومشت قافلةٌ تغرقُ فى جوف السنينْ

(باريس) محيي الدين صابر

الأدب والفن في أسبوع

الأديب والسياسة :

هذا عنوان المحاضرة التي ألقاها الدكتور طه حسين بك في مساء يوم الإثنين بقاعة الليسيه فرنسيه ، وقد بدأ بالتساؤل عن معنى الأدب والسياسة ، فانتهى إلى أن الكلام لا يكون أدباً إلا إذا زيد فيه على تأدية المعاني العادية الإمتاع الفني الذي يتحقق من المعنى واللفظ وطريقة الأداء حين يريد الأديب أن يؤثر في النفوس ويثير فيها العواطف المختلفة ، كما انتهى إلى أن السياسة أعم مما يفهم منها حين يراد بها العلاقة بين الحكومة والشعب ، أو بين البرلمان والحكومة وحين يراد بها النزاع بين الأحزاب على الحكم ونظمه ، لأن السياسة تشمل شئون الشعب من حيث علاقات أفراده وجماعاته وطبقاته بعضها ببعض كما تشمل علاقة الشعب بالشعوب الأخرى في شتى نواحي الحياة ، أي أنها تشمل الحياة الاجتماعية كلها . وقال الدكتور : إن هذا هو المعنى الذي أفهمه للسياسة حين أتحدث إليكم في العلاقة بين الأدب والسياسة .

وعلى هذا الوضع نستطيع أن نتبين هل يمكن للأديب أن يعيش في عزلة عن المجتمع ؟ إن ذلك لا يمكن لأن الأدب ظاهرة اجتماعية والأديب أداة اجتماعية لا يستطيع أن يعيش بنفسه ولنفسه ، وساق حياة المعري مثلا على العزلة الظاهرية التي تدل على عدم إمكان الانقطاع عن حياة الناس ؛ لأنه لزم داره حقاً ، ولكنه أنشأ أدبه في شئون الناس ؛ ينتقد حياتهم ويسفه آراءهم ؛ فاعتزال الأديب غير ممكن ، وما مسألة البرج العاجي غير خداع وأوهام . وقال إنه عرف بعض الأدباء الذين يزعمون أنهم يعتصمون بالبرج العاجي من المصريين وغير المصريين فلم ير أحداً أشد منهم تهالكا على نشر آدابهم وحرصاً على رضا الناس عنهم وخوفاً من سخطهم على إنتاجهم .

فلندع إذن هذه المسألة الوهمية لننظر فيما يضطلع به الأديب ؛ فهو إما أن يكون مترفاً في أدبه يخلص من مشاغل الحياة إلى إمتاع العقل والقلب بفن رفيع ، وهذا في الحقيقة لا يتجنب مسائل الحياة ، وإنما يعالجها على نحو لا يدركه إلا الخاصة ، أو يكون الترف بالتلهية والتسلية كالذي يقصر الوقت بين الاستلقاء على الفراش والاستغراق في النوم . أو يعمد الأديب إلى جد الحياة فيشارك في التوجيه والتثقيف ويصور الآلام والآمال .

والأديب على كل حال من هذه الأحوال فرد في المجتمع يعمل كما يعمل أفراده ويتحمل نصيباً من التبعات قل أو كثر ، حتى أدب التسلية فإنه يعين على التخفف من هذه التبعات في بعض أوقات الفراغ .

وبعد أن استعرض الدكتور بعض العصور الماضية مبيناً أثر السياسة في الأدب وانشغاله بها ، خلص إلى الوقت الحاضر فقال إن أدباءنا جميعاً — وأنا منهم — غارقون في السياسة إلى الأذقان ؛ فهم جميعاً يتحدثون في كتبهم وفي الفصول التي تنشرها لهم الصحف والمجلات ، عن شئون الحياة ومشاكل العصر ، ولو لم يفعلوا ذلك لكانوا طفيليين في الحياة . وغاية ما في الأمر أننا نستطيع أن نحدد ما ينفع وما لا ينفع ومن الثاني الاشتغال بخصومات الأشخاص وأغراضهم ومطامعهم ، وفي غير ذلك لا يجمل بالأديب أن يتجنب السياسة . ويحدث أن يلقاني بعض الناس أو يلقوا غيري من الأدباء فيقولوا : لو تركت السياسة وخلصت للأدب ! وهؤلاء لا يفهمون السياسة ولا الأدب .

تعقيب :

رأيت أن الدكتور طه وسع معنى السياسة حتى جعلها تشمل كل شئون الحياة ، وليس هذا هو مدلولها الذي جرى الناس عليه وقد انساق في هذا التوسيع — كما يخيل إلي — ليدخل السياسة في اختصاص الأديب . ولكن هل هذا الغرض في حاجة إلى التوصل إليه بذلك المزج ؟ إن الأديب يتناول كل شيء في الحياة بطريقته الفنية ، فيكتب الأدب السياسي والأدب الاجتماعي وغيرهما ، وليس معنى هذا أن كل شئون الحياة اسمها سياسة ، وإلا فهل تعد القصة التي يكتبها الأديب مثلا ويدير فكرتها وحوادثها على زوجين لم يسعدا لاختلافهما في العمر اختلافاً كبيراً هل يعد مثل هذا سياسة ؟

أما هل يكتب الأديب في السياسة أو لا يكتب فيها ، فهذه مسألة أخرى ، وإن كان مما لا شك فيه أنه حين يكتب في

السياسة فيمتع ويُشعر بجمال الفن ، لا يبعد عن الأدب ، ولكن أدبه سياسي يختلف عن ألوان أخرى من الآداب .

مؤتمر المجمع اللغوى :

احتفل مجمع فؤاد الأول للغة العربية يوم الإثنين بافتتاح مؤتمره السنوى أى الجلسات التى تنعقد بحضور الأعضاء الأجانب شرقيين وغربيين ، وقد جرى المجمع على أن يحتفل فى أولى هذه الجلسات بافتتاح هذا المؤتمر .

افتتح الحفل معالى رئيس المجمع أحمد لطفى السيد باشا ، ثم ألقى معالى وزير المعارف عبد الرزاق السنهورى باشا كلمة لا أحسبنى مغالياً إن قلت إنها ثورة لغوية .. فقد أشار إلى ما ذكره فى خطاب العام الماضى من أن هناك علامتين لسلامة اللغة ، هما اقتراب لغة الخاصة من لغة العامة ، وابتعاد لغة الحاضر عن لغة الماضى . ثم قال إن لغتنا العربية فى الوقت الحاضر قد تطورت تطوراً كبيراً ، لأنها اليوم أقرب إلى لغة العامة وأبعد عن لغة الماضى إلى حد كبير ، فهى إذن لغة سليمة ، وليست اللغة السليمة هى التى نقرأها فى كتب القرون الماضية ، فهذه صورة تاريخية من صور تطور اللغة العربية ؛ والذين يقولون إن اللغة العربية قد دخل عليها الفساد وركبها البدع يعتقدون أن اللغة العربية ليست إلا هذه الألفاظ والعبارات التى جرت بها الألسن فى القرون الأولى ودونتها الكتب والمعاجم فى العصور السالفة . ولكنا نذهب إلى غير رأيهم ، فلا تملك الأموات من هذه اللغة أكثر مما تملك الأحياء .

ووصلت الثورة إلى مداها عند ما قال معاليه : هأنذا أستعمل لفظ « التطور » وهو لفظ عربى لا إخال أنه يستند إلى نص أو قياس ، ولكنه لفظ أجمع عليه كتاب العربية فى عصرنا الحاضر ، فهل يجوز لأحد اليوم أن يخطئنى فى استعماله ؟ وقد أكون استعملت فى كلمتى هذه أو فى غيرها ألفاظاً قد تكون منضبطة على القاموس أو غير منضبطة ، وقد تكون واردة فى المعاجم الأولى أو غير واردة ، فسواء كان هذا أو ذاك فإنها ألفاظ عربية سليمة متى انعقد عليها إجماعنا فى العصر الحاضر .

ونوه معاليه بأهمية الإجماع فى اللغة وتطورها وحياتها ، ثم نبه على أنه لا يقصد به الفوضى التى تأتى من استعمال ألفاظ بعيدة عن أصول اللغة وقواعدها .

وألقى الأستاذ عباس محمود العقاد بحثاً فى « موقف الأدب العربى من الآداب الأجنبية فى القديم والحديث » . فأوضح معالم الموضوع وبينه بياناً حسناً على اضطراره إلى الإيجاز فيه . قال إن الأدب العربى تأثر بمخالطة الأمم الأجنبية قديماً كما تأثر بها حديثاً ، غير أن تأثره بها فى القديم كان على أكثره — من ناحية الحضارة بملابسة الأمم فى أصول المعيشة وعادات المجتمع ، وأن تأثره بها حديثاً كان — على أكثره — من ناحية الثقافة بالاطلاع على آداب الأمم فى لغاتها والتوفر على دراستها .

قال الأستاذ فى بيان التأثر القديم : كان اعتزاز العرب بلغتهم صارفاً لهم عن تعلم اللغات الأجنبية منذ أيام الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أضاف الاعتزاز بالعقيدة إلى الاعتزاز باللسان ، لكنهم خالطوا الأمم فى حضارتها وإن لم يتكلموا بألسنتها فأثر ذلك فى أدبهم وظهر أثره فى أوزان القصيدة ومعانيه ، وفى الإسلام زاد الاتصال فدخل فى أغراض الشعر كثير من مظاهر الحضارات التى تجمعت فى بلاد الدولة الإسلامية كوصف المهرجانات والمواسم .

ثم قال فى بيان التأثر الحديث : إن موقف الأدب العربى من الأمم الأجنبية فى العصر الحديث هو — على الأغلب — موقفه من الأمم الأوروبية ، وصبغة الثقافة فيه أظهر من الحضارة على وجه التعميم ، ولقد كانت اللغتان الفرنسية والإنجليزية أقرب مسالك الثقافة الأوربية إلى البلاد العربية . واتفق أن كان هذا الاتصال فى عهد النهضة العلمية أو عهد التحقيق والتمحيص ، فقرأ أدباء العرب كتب القوم وهى تضيف مزايا التعبير العلمى إلى مزايا التعبير الأدبى فى أقلام البلغاء ، فكان من أثر ذلك دقة الأداء وتخصيص اللفظ بمعناه ، وكان من أثره اتساع أفق الكتابة والشعر ، وبخاصة ما كتب أو نظم فى تمثيل الجوانب النفسية وتحليل دواعى الحس والعاطفة .

وألقى الشيخ عبد القادر المغربى كلمة عن « مجامعنا اللغوية وأوضاعها » تحدث فيها عن المحاولات الأولى فى إنشاء هذه المجامع ، فالمجمع الأول أنشىء سنة ١٨٩٢ برياسة السيد توفيق البكرى ، والمجمع الثانى أنشىء سنة ١٩١٧ برياسة الشيخ سليم البشرى وكان الأستاذ لطفى السيد (باشا) مقرراً له ، وقد أنتج هذان المجمعان نتاجاً لم يكد يولد حتى مات ؛ لأسباب منها ما يرجع إلى طبيعة الألفاظ التى وضعت ، ومنها ما يرجع إلى التغافل عن

الطرق المؤدية إلى استعمال تلك الألفـاظ واستمالة أنظار الجمهور إليها . وعد الأستاذ المغربى من تلك المحاولات ما كان منه ومن المغفور له أحمد تيمور باشا إذا اتفقا على العمل على استعمال ألفاظ فصيحة بدلا من العامية والدخيلة ، وانتقى تيمور باشا عشرين كلمة من الفصيح ونشرها فى المؤيد سنة ١٩٠٨ ونصح الجمهور باستعمالها ، ثم كتب الشيخ المغربى تطبيقاً عليها مقالا فى المؤيد بعنوان « تمرين على الكلمات العشرين » .

ثم تحدث الأستاذ عن المجمع العربى بدمشق ومجمع فؤاد الأول بمصر وأثرهما فى اللغة وما يرجى منهما .

وألقى الأستاذ محمد كرد على بحثا فى « عجائب اللهجات » بين فيه أثر اختلاط العرب بغيرهم وخاصة بعد الإسـلام فى تعدد اللهجات ، واستمر فى بحثه حتى وصل إلى العصر الحاضر فساق أمثلة كثيرة لاختلاف اللهجات فى الأمم العربية .

ووقف الأستاذ جب المستشرق الإنجليزى فاعتذر من عدم حضوره مؤتمر المجمع فى السنتين الماضيتين لانشغاله مع زملائه أساتذة الثقافة الشرقية فى الجامعات الإنجليزية بتنظيم الدراسات الشرقية وقال إنهم ألفوا جمعية خاصة بهم فى السنة الماضية .

أعمال المجمع :

وقد ألقى الدكتور منصور فهمى باشا كاتب سر المجمع كلمة فى « أعمال المجمع خلال الدورة الماضية » وأرهفت الآذان لتلقى أنباء هذه الأعمال فإذا هى تتلخص فى إلقاء بحوث فى الجلسات من بعض الأعضاء ، وفى النظر فى بعض المصطلحات العلمية وتقرير تعريفها ، والنظر فى منهاج العمل بالمعجم الوسيط والمعجم الكبير ، وفى مواصلة اللجان أعمالها ، فلجنة الأدب أنجزت مسابقة الإنتاج الأدبى فى العام الماضى وتعمل فى مسابقة العام الحالى ، ولجنة الأصول أمامها مقترحات فى تيسير الكتابة العربية لا تزال تبحثها .

وكل تلك الأعمال عدا المسابقة الأدبية لم تظهر لأعين الناس بعد ، ولم يزل المجمع يتحدث عنها منذ سنين كما يتحدث عنها الآن حتى المجلة التى قالوا منذ أكثر من عام إنها على وشك الظهور لا تزال طى الخفاء . . وقد فاتنى أن أذكر من أعمال المجمع أنه قرر نشر المجلة مرتين فى السنة

أشعر الشعراء :

كانت مجلة الهلال قد نشرت فى أكتوبر الماضى استفتاء لقرائها عن الشعراء الخمسة الأول بين العرب الأحياء ، وعمن هو أجدرهم بلقب الإمارة الآن . وكنت قد عقبت على ذلك ببيان عدم الحاجة إلى هذه الإمارة ، وتفنيد طريقة استفتاء قراء أكثرهم ليس أهلا لمثل هذه الأحكام الأدبية .

وقد أحسنت الهلال إذ أعلنت فى هذا الشهر نتيجة الاستفتاء خالية من « أمير الشعراء » قاصرة على « الشعراء الخمسة الأول » واصطنعت اللباقة فى « دغم » مسـألة الإمارة ، إذ ذكرت أن المشتركين فى الاستفتاء « قالوا إن آثار كبار شعرائنا تكاد تكون فى مستوى واحد من القوة والإبداع ، ويكاد لا يوجد وجه لتقديم بعضهم على البعض الآخر » وهكذا خلصت إلى ما عرف عن دار الهلال من الاتزان وإرضاء الجميع . ثم أعلنت « أن الشعراء الخمسة الأول بين شعراء الأقطار العربية هم بالترتيب الذين حازوا أكثر الأصوات : خليل مطران بك . على الجارم بك . السيد بشـارة الخورى . الأستاذ على محمود طه . الأستاذ أحمد رامى »

وقد جاءت هذه النتيجة -- كما ترى -- وفقاً لما ينتظر من قراء يتوخون أكثر الأسماء شهرة فى المحيط العام دون التفات أو دراية بما تستحق من تقديم أو تأخير ... وأنت تعلم -- كما أعلم -- أن ثمة شعراء يرجحون بعض هؤلاء فى الموازين الأدبية . وقد نشرت المجلة تعقيباً على هـذا الاستفتاء للدكتور عبد الوهاب عزام بك قال فيه إن الناقد لا يستطيع أن يوازن بين جماعة من الشعراء « إلا أن يقرأ ديوان كل واحـد منها قراءة ناقد متثبت ، ويكون قد عنى بها وقرأها واستقر على رأى فيها على مر الزمان ... وليت شعرى من فعل هذا من النقاد ؟ » أقول : إذا كان هذا مستبعداً على النقاد فما بالك بالقراء ... ؟

ملك الشعراء :

ومما قاله الدكتور عزام بك فى ذلك التعقيب : « وإذا نظرنا فى تاريخ الآداب الشرقية ، وجدنا ألقاب الإمارة والملك معروفة بين شعراء إيران مثل ملك الشعراء معزى . وقد تلقب بلقب ملك آخرون من شعراء الفرس من بعده . وفى عصرنا هذا يعرف الشاعر الكبير بهار بلقب ملك الشعراء ، وهو أستاذ فى جامعة



أدب المليــــم المزيف

للأستاذ حبيب الزحلاوى

إلى صديقى الكريم الأستاذ صديق شيبوب :

يعسر على الكاتب فى النقد الأدبى ما يسهل على الكاتب المنشىء فى كتم خليقته وستر سريرة نفسه ، لأن النقد بيان وتفصيل ، ولئلا محيد للناقد عن التجرد الذاتى لينطلق حراً ، يقول الحق ويصور الحقيقة .

الناقد المتجرد نمّام واشٍ ، يشى بنفسه على نفسه ، ويعترف بما فى قرارتها من أسرار ، وينشر ما تنطوى عليه ضلوعه من سجايا وخلائق ومن كوامن دفينة أيضاً ، لأن طبيعة التجرد توجب ذلك ، ولأن التجرد والانطلاق صفتان يبعدان كل البعد عن خلال المواربة والختل والمداورة والنفاق التى تعسر كل العسر على الكاتب فى النقد الأدبى.

قرأت ما كتب النقاد فى كتابى « أنات غريب » وأصغت بسمعى إلى ما ساقه البعض إلىّ من لوم وتجريح من ناحية ، وثناء وإطراء ومغالاة فى التقدير من البعض الآخر من ناحية ثانية ، فلم أقف طويلا عند واحد من أولئك المسرفين فى اللوم أو الإطراء ، ولكنى أشعر الآن بما يدفعنى إلى الوقوف طويلا — وجهاً لوجه — من صديقى الكريم الأستاذ صديق شيبوب ، الكاتب الهادىء النفس ، المنكر لذاته ، القانع بالقليل القليل من الشهرة وذيوع الصيت ، الدؤوب على المطالعة والدرس والتنقيب والتعقيب ، المثابر على نشر فصل فى « الحياة الأدبية » مرة واحدة فى كل أسبوع ، فى صحيفة يعبد أربابها المال ، ويروجون للمضاربة فى أسواق المال ، وقد لا يقرأها أديب واحد غير يوم الجمعة ، لأنه ليس فى الأدباء ممن أعرف غير يهودى واحد وجزويتى واحد يضاربان ليكسبا المال فى سهولة الكسول ومغامرة المقامر المضارب . فى هذه الصحيفة المالية يختبىء صديقى الكريم وراء حرفين متواضعين من حروف الهجاء « صاد شين » فبينا تراه فى فصل من فصوله الأسبوعية يدرس كتاباً فى تاريخ قدماء المصريين أو الرومان واليونان ، تجده فى بوادى الجاهلية وصحارى الإسلام يقارن ويوازن ، وينسق ويعادل هؤلاء بأولئك . وبينا نسمعه يروى أسطورة أو خرافة ، نراه ينشر قصة تصويرية لواقعة حال ، أو بحثاً تحليلياً لأديب جرى عليه النسيان ، أو يلخص كتاباً فى الأدب الفرنسى أو رواية عصرية ، وهو بين هذا وذاك يكتب فصولا بارعة فى دراسة الكتب التى تهدى إليه ، فيقرظها تقريظ المشجع أو المحبذ ، تقريظ الأديب الغيور الذى يدفع بالمؤلف إلى الاستزادة والإجادة ، ولكنى ما قرأت فى فصول الأستاذ صديق سوى بعض فصول فى النقد كان يخص بها الأصدقاء والمعارف من المؤلفين . ولعلى أنصف صديق شيبوب إذا قلت إن فصوله

طهران ، وأما فى تاريخ الأدب العربى فلم تعهد هذه الألقاب ... وبعد فإن لم يكن بد من بيعة أحد الشعراء المعاصرين بالإمارة أو الملك فأيسر وسيلة لذلك أن يجتمع الشعراء وحدهم ويختاروا لأنفسهم ملكا أو أميراً عليهم . فإن فعلوا فليس بعد رأيهم مقال لقائل » . وأنا لا أرى أن هذه وسيلة يسيرة فضلا عن أن تكون أيسر وسيلة ، فمن يضمن لنا أن كلا من شعرائنا سينتخب غيره وأن سيكون لهذا الانتخاب نتيجة سوى أن يكون عدد الفائزين مساوياً لعدد الشعراء ... وخاصة إذا كان المطلوب صاحب جلالة فى الشعر لا أميراً فحسب .

ولم كل هذا وعندنا « ملك الشعراء » الدكتور زكى مبارك وقد كفى سائر الشعراء مشاق الاجماع والنزاع والاختيار ، فأعلن نفسه ملكا عليهم ، ولعله كان قد انتظر أن يشعروا بأحقيته لهذا المنصب الخطير ، فلما رآهم مشغولين كل بنفسه ، وجد من حق نفسه هو أيضاً أن يتقدم إلى مكانه .

والدكتور زكى مبارك أو ملك الشعراء ، يفوق الشعراء جميعاً بالحرية التامة فى التعبير عما يريد ، فشعره صورة صادقة لنفسه ، ليس فيها مداجاة ولا تزوير . وهو رجل سليم الطوية لا يخشى — اذا ملك — أن يجور ، وفيم يجور ؟ !

« العباس »

في النقد الأدبي هي المتفوقة في قيمتها والمتقدمة في شأنها على بقية فصول يكتبها « في الحياة الأدبية » .

على هذا الأساس إذن أقف من صديقي الناقد البارع أساجله مساجلة الراغب في بلوغ الحق، القاصد وجه الحقيقة : قال الأستاذ شيبوب في العدد السابق من الرسالة :

« ... ولا يقف أدب الأستاذ حبيب الزحلاوي عند التأليف القصصي ، فإنه نقادة أدبي ، ولعل النقد الأدبي كان أول ما عالجه من فنون الأدب ، إذ تقدم كتابه « أدباء معاصرون » غيره من الكتب . وقد ظهر ميله إلى النقد في أقصوصة « الدميم » لأنه عرض فيها للحبكة ، والعرض والفكرة ، والوحدة ؛ وذكر أنه « ليست قيمة القصة في المادة التي تتألف منها ، ولا في كيفية ترتيب تلك المادة ، بل قيمتها في الكيفية التي تؤدي بها ، وفي عرضها عرضاً خاصاً بمهارة فنية ، بالتشويق والترغيب ، وفي صدق الرواية عن الحياة ... » .

« وقد اضطر لبيان ذلك ، إلى حشر أقصوصتين في أقصوصة واحدة ، وهما لا رابط بينهما غير فكرة العرض بمهارة وبغير مهارة » .

يعلم صديقي ولا شك أن مجال القصة واسع سعة الفضاء الذي يضم الكون ، وأن القاص إذا قصر في تجواله بأجوائه ، إنما يكون تقصيره نتيجة لضعف في خوافيه وقوادمه ، وفقر إلى الخيال المنسرح والذهن المبتدع . وأن المجالات الضيقة التي رسمها نقاد القصة ليست في الضيق إلى الحد الذي يصد المبتكر عن شرح درس في بناء القصة وتعليم من لا يعلمون أنها تسع كل ضرب من ضروب العلوم والفنون ، وكل رسم وصورة للحياة بكامل ظواهرها وبواطنها فكيف تضيق القصة إذن بالنقد الأدبي ؟ .

أقول القاص المبتكر تمييزاً له عن أولئك « الملافيت » الذين يملأون الصحف « السوقية » بقصص فاجرة يضل القارىء في مبتداها ومنتهاها ، وبتيه قاص الأثر البارع في تتبع معالم وأغراض كاتبيها ، هذا إذا كانت لهم أغراض ومقاصد . ثم أي حرج على القاص وقد جعل بطل قصته معلماً حكيماً يعلم تلامذته الأصول والقواعد ، ويهديهم سواء السبيل ؟ أيعاب عليه إبراز مثل ناطق يشهد على العشرات من القصصيين الذين يرتجلون القصة ارتجالا ولا غاية لهم سوى إثارة الغرائز وإلهاب الشهوات ! كيف ، بل لم تؤاخذني ياصديقي على بيان « يميز بين قصة معروضة بمهارة ، وقصة لا مهارة في عرضها ؟! » .

على هذا الأساس كتبت قصتي « الدميم » وبهذا الرباط ربطت بين القصتين ، قصة مرتجلة لا ضوابط لها ولا قواعد ، مرماها إثارة الشهوات الجنسية ، وقصة تتفاعل فيها عوامل الحياة الزاخرة بالصدق ، وهي معلومة الحدود والمعالم ، واضحة الطريقة والمذهب والغرض والأسلوب ، أيجوز لك يا صديقي ، بعد هذا أن تقول إن القصة مفتعلة لبيان فضل الأقصوصة الثانية على الأقصوصة الأولى ؟؟ .

لا أحسب أن هذا التجني من صديقي الكريم جاء عفواً ، بل اعتقد أنه كان وسيلة لغاية ، لأن المقال الذي تفضل بكتابته عني ، إنما كتب بروح من النقد ، والناقد كما علمنا نمام واش يشي على نفسه بنفسه : قال الأستاذ شيبوب :

« تناول الأستاذ حبيب الزحلاوي النقد الأدبي في شيء من الجرأة ، وكثير من العنف ، مما جعل له خصومات أدبية قديمة وحديثة كانت إحداها مع أديب له مقامه المرموق في عالم البحث والأدب والشعر ، والتجديد الذي يحاوله هذا الأديب الفاضل لا يروق الأستاذ الزحلاوي ، وهو حر في رأيه . وكنت أعتقد أن هذه الخصومة تقف عند حد النقد الأدبي ولا تتعداه إلى التعريض في إحدى القصص بذلك الأديب . والحق أني كنت أجل صديقي الأستاذ الزحلاوي عن أن يستعمل مثل هذه الوسيلة لينال من أديب نابه لا يرضى هو عن أدبه » .

هنا مربط الفرس كما يقولون ، هنا يتجرد الناقد الذاتي المنطلق حراً في القول والتصوير ، هنا تظهر وشاية النفس بالنفس ، هنا تبدو الكوامن وتطفو مخبآت السرائر ، وهنا أقف من صديقي الناقد وجهاً لوجه أسأله ، من هو ذلك الأديب صاحب المقام المرموق في البحث والأدب والشعر والتجديد ؟ ما قيمة أدبه

وشعره وتجديده ، وكيف صحّ لصديق الأستاذ شيبوب السكوت عن الإشادة بهذه الفضائل المطمورة تحت الأطلال والملقاة في الدمن ؟ هل استحى صديق الناقد من ذكر اسم ذلك الأديب الشاعر المرموق؟ أرضي صديق الناقد أن أشفق على صاحبه فلا أذكر اسمه بل أرمز إليه بالإشارة ؟ أليس ذلك الأديب المرموق هو الذي مات مختنقاً عند وصيد باب مجلة « المقتطف » ولم يرثه زجّال مأجور ؟ أليس هو الذي أضناني شعره فرصدت مبلغاً من المال أغرى به أصحاب العقول السليمة على شرح شعره المضني فلم يظفر بمالي أحد ؟

قد يعوزك الدليل يا صديقي تدحض به ما رميتُ به أديبك المرموق ، أما أنا فلا أعدم الحجة أستمدها من شاعرك المجدد لأزيد الطين بلة .

نشر الشاعر المجدد قطعة عنوانها « نهار وليل » قال فيها :

« بودي لو أنهض والنهار باسم ، فألمح إلى عجائب فأستملي ، ولكني أخو العجز ، لا أزال ظلا للنعاس المتثائب .

« ذات مساء إلى وليجة نفسي تحدرت – بدوة من بدوات – هل أردت تصفح البستان لا ثمر فيه ولا زهر ؟ تحدرت وما استطعت الصعود ، لوجهي صرعني هول ما دريت ما يكون .

« الحب وحده كان يقوى أن يسعفني فأصعد ، لكنه جاء من بعد ، من عل ، من مغيّب البُعد ، أقبل عاجلا مترعاً بالضوء فيفيء غير مستحق ، شدّ ما فتنني فذوّبته في خاطرى ، وفي الخاطر ظللنا روحاً لصق روح ، كلانا جاثم مخفق .

« هل كان في وسعي أن أدرك قبل أن أغفو وأذهب في الغفوة – يا له من سبات لطيف في ضميره خصب ونشاط – هل كان في وسعي أن أحلمُ باليقظة الناعمة ، بالأعجوبة يعانقها النور ؟ .

« في البدء داخل الليل نهاري وأسرف ، فغلظت العتمة ، ولكني أصررت على التبصر ، أحرُ ، والآن الآن أذكر كيف لفت العتمة خاطرى ، يا لله ! يا ظلمة تجرى الحذارق في وليجة نفسي ، يا ظلمة أصبحت منبت مصير محير مصيرى الوهاج » .

ها هي ذي قطعة كتبها الأديب المرموق الذي تطوع للدفاع عنه صديقي الأستاذ صديق شيبوب أقدمها له راجياً منه أن يتفضل علينا بترجمتها إلى اللغة العربية التي يفهمها أمثالي من عباد الله المتواضعين .

ليسمح لي صديقي الأستاذ شيبوب أن أذهب معه في التسامح كل مذهب في الافتراض الجدلي فأسأله هل إذا استطاع تذليل الصعاب ، وحل الطلاسم ، وفك الرموز ، هل في مقدوره أن يرسم لنا صورة واضحة لمعاني هذا الكلام الذي قاله صديقه الشاعر المرموق ؟ هب أن المعاني كانت سامية حقاً ، ولكن ماهي قيمة المعاني إذا صيغت صياغة متشابكة متضاربة متنافرة ؟ لنفرض جدلا أن لكلمات هذه القطعة الفنية بمفردها وبمجموعها معان طيبة ودلالات إنسانية ولكن ما هو أثرها الفعال في النفس ، هل هزتها وأمرت الرعشة فيها ، وهل علق معنى واحد في ذهن قارئها ؟ لنفرض جدلا أنه قدم المتأخر من الكلمات وأخر المتقدم ووضعها في وضعها الصحيح وأقحمها على الذهن إقحاماً وحشرها فيه حشراً فما هو قيمة هذا الأدب وما هو قدر هذا الكاتب ؟ ولمَ هذا العناء المضني ؟

أردت يا صديقي خصومة بين الأدباء لا عداوة ، ورفعت لواء هذه الخصومة عالياً في كتابي « أدباء معاصرون » وما برح علمي يخفق فوق ساريته ليراه كل كاتب أو شاعر طمل يفاتك بالكذب والشر على الأدب والفن فيسمي الحرف تجديداً واللوثة حصافة ، وأعيذك يا صديقي أن تكون طبيباً في مصحة الأمراض العقلية .

تستوي عندي خصومة وعداوة من يعتدي على كرامة الأدب أو يحاول إلحاق الدنس الأدبي بنهضتنا التي لم يعرف تاريخ الأدب العربي لها ضريباً في كل عصوره .

وليعلم صديقي الكريم الأستاذ صديق شيبوب أن أدب صديقه الشاعر المرموق لا يساوى في سوق الناقدين المتجردين غير المتحيزين مليما زيّفه صراب خسيس .

حبيب الزحلاوي



١ — أنطون الجميل باشا :

رزئت الصحافة العربية هذا الأسبوع في ركن من أركانها ، وخسر الأدب علماً من أعلامه ، وهو المغفور له الأستاذ أنطون الجميل باشا ، فكانت الفجيعة بفقده قاسية الألم على أبناء العروبة عامة ، وعلى رجال الصحافة والأدب خاصة .

ولقد زاد في هول الفجيعة به رحمه الله أن قضى بموت الفجاءة وهو في ميدان العمل يناضل ويجاهد في أداء واجبه ، حتى لقد خرجت « الأهرام » إلى أيدي قرائها وفيها آثار قلمه وتوجيهه ، ولكنها لم تدرك نعيه ، لأنه كان قد أتم عمله فيها ، وانصرف إلى داره متمتعاً بالعافية التامة ، وفي الصباح الباكر ليوم الثلاثاء الماضي وافته المنية ولم يشعر بأثر من مقدماتها إلا بضيق خفيف في التنفس ، ثم كان السكون الأبدي ، وهكذا نفض الرجل يده من الحياة في رفق وسهولة وهدوء ، وقد كانت هذه هي أظهر خلاله في الحياة ودستوره في العمل وفي صلاته بالناس .

لقد أمضى أنطون باشا في الحياة نيفاً وستين عاماً ، أو قل على التحديد ثلاثة وستين عاماً ، ولكنه لم يأخذ من هذا العمر الطويل لنفسه وشخصيته شيئاً يذكر إلى جانب ما بذل في سبيل المصلحة العامة ، وأنفق للخير والإنسانية ، وضحى لخدمة الشرق العربي والوطن العربي جميعه ، وإنه ليخرج من الدنيا وليس من ورائه زوج تندبه أو ولد يبكيه ، ولكنه لا شك قد ترك من ورائه مئات من الإخوان والتلاميذ الذين أضفى عليهم من روحه وطبعهم بطابعه ، وألوف بل ملايين من أبناء العروبة عاش ينشد لهم المجد والسعادة على مدى الأيام ، فهو في نفوسهم ذكرى باقية وأثر خالد على كر السنين والأعوام .

وفد أنطون باشا وهو شاب في ريعان العمر من لبنان على مصر ، ولقد خرج من وطنه الأول تبرماً بالجبروت السياسي الذي كان مسلطاً على الأحرار في تلك البلاد ، وجاء إلى مصر وطنه الثاني لعله يتنسم نسيم الحرية ، ويجد مجالا فسيحاً لطموحه ، وكان أديباً موهوباً ، فحمل القلم ونزل إلى الميدان ، فأصدر مجلة « الزهور » لتكون حلقة اتصال بين أدباء العروبة في جميع الأقطار والأمصار ، وما هي إلا جولة حتى برز إلى الطليعة ، وظهر في الرعيل الأول وظل يصدر مجلته أربع سنوات ، ثم كان أن قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان من قيودها ما حمله على وقف إصدار المجلة والدخول في خدمة الحكومة ، ولقد صعد في هذا المجال درجات ، وتبوأ مكانة مرموقة ، ولكن هذا لم يغلبه على طبعه ، إذ آثر اعتزال الخدمة والعودة إلى ميدان الأدب والصحافة ، وكان أن تولى رئاسة تحرير « الأهرام » ، وأسهم بجهده وبقلمه في تشييد ذلك الصرح العظيم ، وكان إلى جانب ذلك أن اختير عضواً في الشيوخ ، ثم عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، كما هو معروف في الفترة الأخيرة من حياته . .

لقد كان أنطون باشا صحفياً عف القلم ، نزيه التعبير ، يرعى آداب اللباقة دائماً فيما يكتب ، ويعرف كيف يسيطر على أعصابه في الموقف الحرج ، وكان هذا سر عظمته الصحفية ، قال لي في مرة : حكم أخلاقك دائماً فيما تكتبه عن الناس ، واسأل نفسك وأنت تكتب عن غيرك ، هل تحتمل أن يقال عنك هذا الذي تقوله عن غيرك وحذار من طغيان القلم وأنت في خلوتك بل تمثل أن أمامك من تكتب عنه وأنك تقرأ عليه ما تكتب .

وكان رحمه الله أديباً يمنح الأدب قلبه وعاطفته ، وكان في بيانه يؤثر الأسلوب الأنيق ، والتعبير المشرق ، والديباجة الموسيقية ، وكان راوية ، يحفظ كثيراً من الشعر القديم ، كما كان يحفظ جميع شعر الشعراء المحدثين ، أمثال شوقي وحافظ ومطران واسماعيل صبري وولي الدين يكن ، وكان لا يطرب لشيء مثل ما يطرب لسماع الشعر الجيد ، وكان لا يسر بشيء مثل ما يسر بشاب أديب يظهر في أدبه مخايل النجابة والنبوغ ، فيتعهده كأنه ولده . قابلته رحمه الله قبل وفاته بيوم واحد ، وهو منصرف من احتفال المجمع اللغوي ، فسألته لماذا لم يتكلم في الحفل ؟ فقال وكأنه كان يعني نفسه : وماذا تريد أن أقول ، وقد أنهكتنا الأيام ومتاعب الحياة ؟ لقد قلنا كثيراً فقولوا أنتم ، فوالله إنه ليس أطيب إلى نفوسنا من أن نراكم تقولون ...

وبعد ، فليس اليوم مجال القول في شخصية ذلك الرجل

المظلم ، ولكنها كلمة يجرى بها القلم من خلال الدمع ، فالى فرصة أخرى حتى نؤدى واجب الوفاء نحو فقيد الوفاء ، نضر الله قبره ، وأكرم مثواه ...

٢ — ادوار لامبير :

نعت الأنباء البرقية فى هذا الأسبوع العالم الفرنسى الأستاذ ادوار لامبير ، وإن فى مصر لكثيراً من رجال القانون وأعلام السياسة لا يزالون يحملون بين جوانحهم أطيب الذكرى لذلك الرجل الذى كان أستاذاً لهم والذى وقف فى وجه الطاغية « دنلوب » منتصراً للعلم والكرامة حتى لقد ضحى بمنصبه فى هذا السبيل ، وضيع على دولته فرنسا مركزاً علمياً كانت تستأثر به فى مصر .

ذلك أن مدرسة الحقوق فى مصر كان يتولى نظارتها عالم من أبناء فرنسا ، وكانت فرنسا تعتز بهذا المركز وتعتبره مظهر شرف لها إلى جانب ما كان قائماً من تسلط الإنجليز على التعليم فى مصر ، وحدث أن أسندت نظارة هذه المدرسة إلى رجل فرنسى يدعى « تستو » ، وكان هذا الرجل ينزع إلى حب السيطرة والتغلب ، وكان المسيطر على شئون التعليم فى مصر يومذاك الطاغية « دنلوب » ، ونزعته الاستعمارية معروفة مشهورة ، فتلاقى الرجلان فى اتجاه واحد ، وكان كل منهما أداة طغيان وبهتان . ومما يذكر أن « تستو » هذا هو الذى فصل الزعيم مصطفى كامل من مدرسة الحقوق فاضطر إلى السفر لإتمام دراسته فى فرنسا ، وحدث فى عام ١٨٩٦ أن اجتمع فريق من طلاب المعاهد العالية والثانوية فى مطعم بالأزبكية واحتفلوا بعيد جلوس الخديوى عباس الثانى . وصادف أن دخل « تستو » ليتناول العشاء فنقل أسماءهم إلى دنلوب ففصلهم جميعاً من مدارسهم .

ثم تولى « أدوار لامبير » نظارة مدرسة الحقوق وكان رجلا يعرف للعلم كرامته ويرتفع به عن تلك الأساليب الغاشمة ، فكان من الطبيعى أن تتسع الشقة بينه وبين « دنلوب » ، وكان من الطبيعى أن يتصدى « دنلوب » لهذا الرجل لا يجاريه فى إذلال المصريين ومسخ روحهم وتشويه ثقافتهم ، ولكن « لامبير » لم يخنع ولم يطأطىء رأسه وظل دائماً عند عقيدته واتجاهه ، فلما أعياه الأمر استقال وضحى بمنصبه وضيع نظارة مدرسة الحقوق المصرية على فرنسا ، إذ تولاها من بعده رجل إنجليزى يدعى « هيل » ، وكان رجلا لا يدرى من الحقوق شيئاً ، ولكن السياسة الإنجليزية شاءت ذلك فى تلك الأيام .

إنها ذكريات تحتل جانباً من تاريخنا الوطنى ، وهو جانب يجب أن يكتب ويروى ، ولعل نعى الأستاذ لامبير قد أثار ألواناً من هذه الذكريات فى نفوس أبناء الجيل السابق ممن كانوا من تلاميذه ومريديه ..

محمد فهمى عبد اللطيف



إنه ضـــوء القمر

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأستاذ جمال الدين الحجازي

كانت مدام جولى روبير تنتظر أختها مدام هنرييت ليتورالتى عادت من سويسرا منذ خمسة أسابيع ، بعد أن سمحت لزوجها بالبقاء وحده فى كالفادوس لإنجاز بعض الأعمال التى تتطلب وجوده ، وأتت لتقضى بعض أيام مع أختها فى باريس للترويح عن نفسها . وفى الصالون الهادئ ، جلست مدام روبير تقرأ وهى شاردة الذهن ، ترفع عينيها بين وقت وآخر كلما سمعت صوتاً . وأخيراً سمعت دقاً على الباب ، فظهرت أختها حالاً وكانت تلبس معطف السفر . وفجأة وقبل التحية تعانقتا بشدة . ثم بدأ الحديث عن الصحة والعائلة وأشياء أخرى تجيدها النساء ...

كان الوقت مساء ، فأضاءت مدام روبير المصباح ، ولما رأت وجه أختها رغبت فى عناقها مرة ثانية ، فاقتربت منها ، ولشد ما كانت دهشتها عندما رأت ضفيرتى أختها الطويلتين قد ابيضتا ، بينما كان القسم الآخر من شعرها أسود لامعاً وظهر شعرها الأبيض كالفضة تحوطه هالة من السواد .

كانت مدام هنرييت شابة لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها ، فما هو السر فى ابيضاض شعرها ! إنها لم تره هكذا إلا بعد عودة أختها من سويسرا .

نظرت مدام روبير إلى أختها بدهشة والدمع يترقرق فى مآقيها لأنها اعتقدت بأن حادثاً مخيفاً ألم بأختها فسألتها بابتسامة حزينة :

— ما ذا حصل لك يا هنرييت ؟

— لا شيء يا شقيقتى ... أكنت تنظرين إلى شعرى الأبيض ؟

ولكن مدام روبير قبضت على ذراعيها بشدة وكررت عليها السؤال :

أخبرينى ماذا حصل لك ... أخبرينى بالحقيقة وإياك والكذب : ومكثتا برهة تنظر إحداهما إلى الأخرى وقد امتقع وجه هنرييت وكانت دمعتان تبللان وجنتيها فسألتها أختها بلطف :

ألا تودين إخبارى بما ألم بك ؟

وفى صوت خافت قالت بعد أن أخفت جبهتها بين ذراعى شقيقتها :

لى ... لى حبيب ! !

وهناك على الكنبة جلست الأختان فى أحد أركان الغرفة تتحادثان وقد وضعت الأخت الصغرى ذراعها على عنق أختها الكبرى بدلال وأخذت تنصت إلى حديثها :

إنك تعرفين زوجى وتعرفين كم أحبه ! فهو رقيق الشعور ، طيب ، باسم الثغر ، لطيف ومستقيم إلا أن به عيباً واحداً وهو أنه لا يستطيع أن يطرى محاسن المرأة ! ولست أدرى لما ذا ؟ آه كم كنت أتمنى أن يضمنى بين ذراعيه بشدة ، ويقبلنى قبلات حارة تمتزج بها أنفاسنا ! وكم تمنيت أن يكون ضعيفاً بين يدى فيحتاج إلى رقتى وعطفى ودموعى ! قد يظهر أن ما قلته لك تافه ولكننا نحن النساء جبلنا على هذا فما العمل ! ومع ذلك لم أفكر لحظة فى خيانته حتى على شاطئ بحيرة لوكيرن !

هناك على شاطئ البحيرة ، كان القمر يرسل أشعته الفضية على الكون فيملأه بهجة وحبوراً ؛ وشعرت حينئذ بشىء لست أعرف كيف أفسره ! فى الشهر الذى قضيناه نتنزه فى سويسرا ونمتع أنفسنا بجمال تلك البلاد ، أثار زوجى إحساساتى بهدوئه وصمته وتركنى وحدى سابحة أهيم فى الحسن والجمال ! ألا يثير الجمال النفوس ويبعث فيها الحب ! ألا تثير ممرات الجبال الضيقة والأودية العميقة والغابات الواسعة والجداول الرقراقة والقرى الصغيرة الجميلة كل حب للجمال !

أجل لقد سحرتنى هذه المناظر بجمالها فقلت لزوجى وقد ارتميت بين أحضانه : ما أجمل هذه المناظر يا حبيبى ... انظر

إلى القمر المنير والبحيرة الجميلة ... ألا تدعو هذه المناظر الساحرة المحبين للقبل ! ! قبلني الآن وفي هذا المكان قبلة حارة وامزج أنفاسك بقلبي المذاب ! ولكنه أجابني بابتسامة لطيفة باهتة : « لا يوجد سبب يدعو إلى القبل » فتأثرت جداً من كلامه .

غاظني زوجي بمسلكه هذا ، فقد منع تلك الخيالات الشعرية والسبحات الفكرية من أن تخرج إلى دنيا الجمال وأبقاها مكنونة في نفسي عديمة الجدوى .

وفي إحدى الأمسيات ذهب روبير إلى فراشه بعد العشاء ، وكان قد أصابه صداع ؛ فذهبت في نزهة على البحيرة . وهل لي غير البحيرة وشاطئها الجميل ؟

كانت الليلة مقمرة كتلك الليالي التي نقرأ عنها في أساطير الخيال ؛ وكان القمر يزهو بأكماله في كبد السماء ، ويحيي الأرض بأنواره الفضية ، فيكسبها جمالا وبهاء . وظهرت الجبال العالية بثلوجها البيضاء كملوك تلبس تيجاناً فضية ، ولمعت مياه البحيرة لمعاناً أخاذاً في ضوء القمر الجميل ،وكان النسيم عليلا يهيج الذكريات ، ويبعث الشوق في القلوب .

جلست على العشب ، ونظرت إلى البحيرة وقد استولى عليَّ سحرها ، فمر بي طيف عابر ، وأحسست أن الحب قد تملكني وأصبحت في حاجة إليه . فتذكرت حياتي الأولى وما بها من سآمة ويأس فحزنت وتساءلت : ترى هل يبسم لي الزمان فأجد نفسي على شاطيء البحيرة في ضوء القمر الساطع بين أحضان حبيب يلهبني بقبلاته فأنتعش بتلك القبلات الحارة التي ينعم بها العشاق ! ! وعندها شعرت بحبات لؤلؤية تتساقط على وجنتي لم أدر سببها وسمعت من يقول : « لم هذا البكاء يا سيدتي ؟ خفي عنك ما تجدين ... فعلام الحزن وعلام البكاء » وكنت مضطربة فقلت إني مريضة فسار إلى جانبي وكان طيب القلب وبدأ يحدثني عما رأيناه في رحلتنا من المناظر الجميلة وترجم كل ما أحسست به إلى كلمات جذابة ، وشعرت بأنه فهم إحساساتي وشعوري كل الفهم ، وفجأة أسمعني بعض الأبيات الشعرية لألفرد دي موسيه فشعرت كأنني في عالم غير عالمنا ، وخيل إلى أن الجبال والبحيرة وضوء القمر تغني وتسبح مبدع هذه المناظر الجميلة الساحرة

وفي الصباح بينما أنا غارقة في هذه النشوة تركني هذا الحبيب واختفى بعد أن قدّم إلى بطاقته ! وهنا تأوهت مدام ايتور وكادت تصيح . . .

فقالت مدام روبير وقد سرها ما سمعت :

« لتعلمي يا شقيقتي العزيزة أننا لا نحب الرجل دائماً ولا يستطيع أن يثير أشواقنا ؛ فلا غرو أن حبيبك الحقيقي وأنيسك الذي سحرك بحلو ألفاظه ورقة شمائله وأثارك وبعث فيك الحب والغرام في تلك الليلة وأنار لك السبيل هو ضوء القمر .. أجل أنه ضوء القمر ! »

جمال الدين الحجاز
